

مختصر منهاج القاصدين

ابن قدامة المقدسي
ربع المنجيات

نبذة: يعتبر هذا الكتاب خلاصة وعصارة لكتاب التزكية الأول إحياء علوم الدين الإمام الغزالي , يناقش الكتاب أعمال القلوب وما يتعلق بها من عادات وعبادات ومهلكات ومنجيات , كما يعتبر هذا الكتاب منهجاً تربوياً ميسراً للسائرين إلى الله عز وجل .

الفهرس

• **الربع الرابع : ربع المنجيات**

- 0 **كتاب التوبة وذكر شروطها وأركانها**
 - 1- فصل في بيان أقسام الذنوب
 - 2- فصل في كيفية توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات
 - 3- فصل في بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب
 - 4- فصل في شروط التوبة
 - 5- فصل [في شروط التوبة]
 - 6- بيان أقسام العباد في دوام التوبة
 - 7- فصل [فيما ينبغي للتائب فعله]
 - 8- فصل في دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار
- 0 **كتاب الصبر والشكر**
 - فصل الصبر وحقيقته وأقسامه
 - 1- فصل [في أقسام الصبر]
 - 2- فصل [في آداب الصبر]
 - 3- فصل في بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
 - في الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها
 - 5- فصل [في كون الشكر بالقلب واللسان والجوارح]
 - 6- فصل [في فعل الشكر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله]
 - 7- فصل في بيان النعم وحقيقتها وأقسامها
 - 8- فصل في بيان كثرة نعم الله وتسلسلها وخروجها عن الحصر
 - والإحصاء
 - 9- فصل [من نعم الله الأسباب التي يتم بها الأكل]
 - 10- فصل [في عجائب الأغذية والأدوية]
 - أسباب الغفلة عن النعم
 - 11- فصل في بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد
 - 12- فصل في بيان أنهما أفضل الصبر أم الشكر
- 0 **كتاب الرجاء والخوف**
 - الشطر الأول: الرجاء
 - 1- فصل في فضيلة الرجاء
 - 2- فصل في دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به
 - الشطر الثاني : الخوف
 - 4- فصل [الخوف سوط الله تعالى]
 - 5- بيان أقسام الخوف
 - 6- فصل في فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منهما
 - 7- فصل في بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف
 - 8- ذكر خوف الملائكة عليهم السلام
 - 9- ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام
 - 10- ذكر خوف نبينا صلى الله عليه وآله وسلم
 - 11- ذكر خوف أصحابه رضى الله عنهم
 - 12- ذكر خوف التابعين ومن بعدهم
- 0 **كتاب الزهد والفقر**

- الشطر الأول من الكتاب في الفقر
- 1- فصل في فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى
- 2- فصل في آداب الفقير في فقره
- 3- بيان آدابه في قبول العطاء
- 4- فصل في بيان تحريم السؤال من غير ضرورة
- 5- بيان أحوال السائلين
- الشطر الثاني من الكتاب في الزهد
- 7- فصل في درجات الزهد وأقسامه
- 8- فصل في بيان تفصيل فيما هو من ضروريات الحياة
- 9- فصل في بيان علامات الزهد

• كتاب التوحيد والتوكل

0 بيان فضيلة التوكل

0 أحوال التوكل وأعماله وحده

0 أعمال المتوكلين

• كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى

0 فصل في بيان أن أحل اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه وتعالى

0 فصل في بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

0 فصل في بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

0 فصل في بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها

0 فصل في بيان معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله عز وجل

0 فصل في تصور الرضى في مخالفة الهوى

0 فصل في أن الدعاء لا يناقض الرضى

0 باب في النية والإخلاص والصدق

▪ النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

▪ أقسام الأعمال

▪ الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

▪ حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

▪ الصدق وحقيقته وفضله

0 المحاسبة والمراقبة

▪ المقام الأول: المشاركة

▪ المقام الثاني: المراقبة

▪ المقام الثالث: المحاسبة

▪ المقام الرابع: المعاينة

▪ المقام الخامس: المجاهدة

0 التفكير

▪ بيان محارى الفكر وثمراته

▪ التفكير في ذات الله ممنوع

0 ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

▪ ما جاء في فضل ذكر الموت

▪ تفاوت الناس في طول الأمل

▪ شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده

▪ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين رضى الله

عنهم

▪ كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم

▪ حقيقة الموت

▪ ذكر القبر

▪ أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار

▪ ذكر جهنم أعادنا الله منها

▪ محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

▪ صفة الجنة نسأل الله العظيم من فضله

▪ سعة رحمة الله تعالى

الربع الرابع : ربع المنجيات

▲ كتاب التوبة وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بها

اعلم: أن الذنوب حجاب عن المحبوب، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب. وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم على الذنوب، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع. وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال: {قُوُّبُوا إِلَى اللَّهِ حَمِيماً أَنَّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: 31] وقال سبحانه: {تَا أَنَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا نُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً صُوحاً} الآية [التحریم: 8]. وقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإنني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة". وفي "الصحيحين" من حديث ابن مسعود رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دَوِّيَّةٍ (1) مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهب، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته". والأحاديث فى هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مهلكات مبعديات عن الله تعالى، فيجب الهرب منها على الفور. والتوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور فى العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون فى المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بد منه. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله فى اليوم واللييلة سبعين مرة". ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} [الفتح: 2] فأما غيره فكيف يكون حاله؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة، قال الله تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده} [الشورى: 25] وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرر". والأحاديث فى ذلك كثيرة.

▲ 1- فصل فى بيان أقسام الذنوب

أعلم: أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة، لكن تنحصر مثرات الذنوب فى أربع صفات:

أحدها: صفات ربوبية، ومنها يحدث الكبر والفخر، وحب المدح والثناء، والعز وطلب الاستعلاء ونحو ذلك، وهذه ذنوب مهلكات، وبعض الناس يغفل عنها، فلا يعدها ذنوباً.

الثانية: صفات شيطانية، ومنها يتشعب الحسد، والبغي والحيل والخداع والمكر، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك.

الثالثة: الصفات البهيمية، ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، فيتشعب من ذلك الزنى واللواط والسرقة، وأخذ الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفات السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهجم على الناس بالقتل والضرب، وأخذ الأموال، وهذه الصفات لها تدرج فى الفطرة.

فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، فإذا اجتمعت هاتان، استعملنا العقل فى الصفات الشيطانية، من المكر والخداع والحيل، ثم تغلب الصفات الربوبية. فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح، فبعضها فى القلب، كالفكر، والبدعة، والنفاق، وإضمار السوء، وبعضها فى العين، وبعضها فى السمع، وبعضها فى اللسان، وبعضها فى البطن والفرج، وبعضها فى اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك فإنه واضح.

ثم الذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين، وإلى ما بين العبد وبين ربه.

فما يتعلق بحقوق العباد، فالأمر فيه أغلظ، والذي بين العبد وبين ربه، فالعفو فيه أرجى وأقرب، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله، فذلك الذي لا يغفر. وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " **الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله تعالى، فالشرك. قال الله تعالى {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الحنة}** وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل، يغفر ذلك، ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعض، فالقصاص لا محالة."

قسمة أخرى:

اعلم: أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر الاختلاف فيها، واختلفت الأحاديث فى عدد الكبائر. والأحاديث الصحاح فى ذكرها خمسة.

الأول: حديث أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات."**

الثاني: حديث ابن مسعود رضى الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، سئل أي الذنب أكبر؟ قال: " **أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك."**

الثالث: حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: " **الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين."**

الرابع: " **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قول الزور - أو قال - شهادة الزور."**

الخامس: حديث أبى بكره أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت عنده الكبائر قال: " **الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور" فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.**

وقت اختلفت العلماء فيها على أقوال كثيرة، والأحاديث فى الكبائر لا تدل على حصرها فيها، ولعل الشارح قصد الإبهام ليكون الناس على وجل من الذنوب، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر، ويعرف أيضاً الكبائر. فأما أصغر الصغائر، فلا سبيل إلى معرفته، وقد تكلم العلماء فى عدد الكبائر، فروى عن ابن مسعود رضى الله عنه: وهي أربع: وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: هي سبع. وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا بلغه قول عمر: إنها سبع، قال: هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع. وقال أبو

صالح عن ابن عباس : هي ما أوجب الحد فى الدنيا. وعن ابن مسعود أن الكبائر من فاتحة النساء إلى قولة : **{ إن تحتنوا كئنا ما تهون عنه }** [النساء : 31]. وقال سعيد بن جبير وغيره : هي كل ذنب أوعد الله عليه النار. وقال أبو طالب المكي : الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة الأخبار. أربعة فى القلب : الشرك ، والإصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله تعالى. وأربعة فى اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر. وثلاثة فى البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا. واثنان فى الفرج : الزنا واللواط. وواحدة فى الرجلين : الفرار من الزحف.

واحدة فى جميع البدن ، وهي عقوق الوالدين. وهذا يمكن أن يزداد عليه ، وينقص منه ، فإن ضرب اليتيم وتعذبه أكبر من أكل ماله ، والله أعلم.

▲ 2- فصل فى كيفية توزع الدرجات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا.

أعلم : أن الناس يتفاوتون فى الآخرة ، كما يتفاوتون فى الدنيا ، وينقسمون إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين. ومثال ذلك أن يستولي ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعض أهله ، ويعذب بعضهم ولا يقتلهم ، ويخلى بعضهم ، فهم الناجون ، ويخلع بعضهم وهم الفائزون. وإذا كان الملك عادلاً ، فلا يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، ولا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ، معانداً له فى أصل الولاية ، ولا يعذب إلا من قصّر فى خدمته مع الاعتراف له بالملك ، ولا يخلى إلا معترفاً له بالملك ، ولم يقصر ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون فى النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم ، ويشهد لذلك ما ورد فى الحديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف ، ومنهم من يبقى فى النار سبعة آلاف سنة ، وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كثير. وأما اختلاف العذاب بالشدة ، فلا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ، ثم يعفو ، وقد يضرب بالسياط أو يعذب غيرها من أنواع العذاب. وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك فى النعيم ، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة. فأما من جهة التفصيل ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، أحسن جميع الفرائض ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصر عليها ، فيشبه أن يعفى عنه ، فقد نص القرآن على اجتناب الكبائر مكفر للصغائر. وهذا إما أن يلتحق بالمقربين ، أو أصحاب اليمين ، وذلك بحسب إيمانه ، ويقينه ، فإن قل أو ضعف ، دنت منزلته ، وإن كثر وقوى ، علت منزلته. ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ، ودرجات العارفين فى المعرفة لا تنحصر ، لأن بحر المعرفة لا ساحل له ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، فأعلى درجات أصحاب اليمين ، أدنى درجات المقربين ، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض. فأما من ارتكب ، أو أهمل أركان الإسلام ، فإنه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذي لم يتسخ أصلاً. فأما إن مات قبل التوبة ، فأمره خطر ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليداً فإنه قابل للانحلال بأدنى شك وخيال ، والعارف الموقن أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة. ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار. ثم ينزل البله المقلدون الجنة ، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين ، وما ذكرناه من مراتب العباد فى المعاد حكم ظاهر الأسباب ، يضاهاه حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ، ولا يقبل إصلاح العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف ، وعلاجه هين ، فإن ذلك ظن يصيب غالباً ، وقد تثوب إلى الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك لأسرار الله تعالى الخفية ، وفى أرواح الأحياء غموض للأسباب التي رتبها المسبب ، وليس فى

قوة البشر الوقوف على كنهها، وكذلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، وكذلك يجوز العفو عن المعاصي وإن كثرت سيئاته، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد على التقوى، والتقوى في القلب، وأحوال القلب قد تخفى على صاحبه، فكيف على غيره

وأما الناجون، ونعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين، وأولاد الكفار، والذين لم تبلغهم الدعوة، فلم يكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة ولا معصية، ويصلح أن يكونوا على الأعراف.

وأما الفائزون، فهم العارفون، وهم المقربون والسابقون، وهؤلاء الذين لم تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، وليس حرصهم على الجنة، بل على لقاء الله سبحانه وتعالى والنظر إليه. ومثالهم مثال المحب، فإنه في تلك الحال غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في بدنه، ولا هم له سوى محبوبه، فهؤلاء الواصلون إلى قرة أعين، ولا تخطر على قلب بشر، فهذا القدر كافي بيان توزيع الدرجات على الحسنات.

▲ 3- فصل في بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم: أن الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة. وفي الحديث من رواية ابن عباس رضى الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار". واعلم: أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها، أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد. ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصبت عليه لم تؤثر، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم "أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل". ومن الأسباب التي تعظم الصغائر أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد، صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد، كبر عند الله تعالى، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له. قال ابن مسعود رضى الله عنه: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا. أخرجاه في "الصحيحين".

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى، رأى الصغيرة كبيرة. وفي البخاري من حديث أنس رضى الله عنه: "إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الموبقات" وقال بلال بن سعد رحمه الله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت. ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أما رأيته كيف مرّقت عرض فلان، وذكرت مساويه حتى خجلته، أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبنته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغيرة. ومنها أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإهمال إثماً. ومنها أن يأتي الذنب ثم يذكره بمحضر من غيره، وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله عليه، ويصبح يكشف ستر الله عنه". ومنها أن يكون المذنب عالماً يُقتدي به، فإذا علم منه الذنب، كبر ذنبه، كلبسه الحرير، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم، فطوبى لمن إذا مات

ماتت معه ذنوبه. وفي الحديث: "ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء".

فعلى العالم وظيفتان:

إحداهما: ترك الذنب، والثانية: إخفاؤه إذا أتاه. وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا أتبعوا على الذنوب، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا أتبعوا على الخير. وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقلل أميل، فإن الناس ينظرون إليه.

وينبغي له الاحتراز مما يقتدي به فيه، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام، فاقتدي به غيره، كان الإثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته. وقد رأينا أن ملكاً كان يُكره الناس على أكل لحم الخنزير، فجيء برجل عالم، فقال له حاجب الملك: قد ذبحت له جدياً فكل منه، فلما دخل قرب إليه فلم يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك إنه جدي، فقال: ومن أين يعلم حالي من يقتدي بي.

4. فصل في شروط التوبة

واعلم: أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلًا بين الإنسان وبين محبوبه. والندم هو توجع القلب عنده شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه، طال بكأؤه، واشتدت مصيبته، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي خير أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرضى أدل على الموت من المعاصي على سخط الله، والتعرض بها للنار. وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة، أو بغير شرطها؟ مثل أن يكون صلاحها في ثوب نجس، أو بنية غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضئها كلها. وكذلك إن كان عليه صوم، أو زكاة، أو حج، أو غير ذلك من الموجبات، يقضئها كلها، ويفتش على ذلك ويتداركه. وأما المعاصي، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى، فالتوبة منه الندم والاستغفار.

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه، فيطلب لكل معصية منه حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات. قال الله تعالى: **{إن الحسنات يذهبن السيئات}** [هود: 114] وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أتبع السيئة الحسنة تمحها". مثال ما ذكرنا: أن يكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر مسح المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقفه فليفعل، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال. وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى. وأما مظالم العباد، ففيها أيضاً معصية الله تعالى، لأنه نهى عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكب نهيته تعالى، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول. فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين، ويكفر قتل النفوس بالعتق. هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى، فإذا فعل ذلك، لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد. ومظالمهم إما في النفوس، أو الاموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب.

أما الأول: فإنه إذا قتل خطأً أو أوصل الدية إلى مستحقيها، إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمداً، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لولى الدم، إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، ولا يجوز له إخفاء أمره، بخلاف ما لو زنا، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفصح نفسه، بل عليه أن يستتر نفسه، فإن رفع أمره إلى الولي حتى أقام عليه الحد، وقد ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل قصة معز والغامدية. وكذلك حد القذف، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثاني: المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغضب، والخيانة، والتليس فى المعاملات، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه. وليكتب إلى أصحاب المظالم، وليؤدِّ إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات، لتؤخذ منه فى القصاص يوم القيامة فتوضع فى موازين أرباب المظالم، فإنها إن تفي بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته. هذا حكم المظالم الثابتة فى الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده أموال من شئ من ذلك لم يعرف مالكة ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية على الأعراس، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله، وليعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفى، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كسبته إلى عيب من خفايا عيوبه، أو كزنى بجارته، فليجتهد فى اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهماً، ولا بد أن يبقى فى مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره، ولا يتدارك إلا بكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات.

▲ 5- فصل [فى شروط التوبة]

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود فى المستقبل إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزمًا مؤكداً. مثال ذلك المريض الذى يعلم أن الفاكهة تضر فى مرضه، فيعزم عزمًا جزمًا أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة ما دام فى مرضه ذلك، فإن هذا العزم يتأكد فى الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه فى الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول مرة إلا بالعزلة، والصمت وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوتٍ حلال، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات. قال بعضهم: من صدق فى ترك الشهوة، وجاهد نفسه فيها سبع مرات، لم يبتل بها، وقال: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين، لم يعد إليه أبداً.

▲ 6- بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

الناس فى التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولى: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه، إلا الزلات التى لا ينفك عنها البشر فى العادات، فهذه هى الاستقامة فى التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات. وتسمى هذه التوبة: النصوح، وتسمى هذه النفس: المطمئنة، وهؤلاء يختلفون منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملئ بمجاهدتها.

الطبقة الثانية: تائب قد سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهى أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمى، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يثقل ميزانه، فترجح حسناته، فأما إن تخلو كفة السيئات، فبعيد. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه وتعالى، إذ قال: **{الذين يحتسبون كباير الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة}** [النجم: 32] وإلى هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **" إن الله يحب المؤمن المُفئن التواب"**

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان، وهو يود لو أقدره الله على قمعها، وكفاه شرها، فإذا انتهت ندم، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب، فهذه هي النفس المسؤولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: **{وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً}** فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى: **{عسى الله أن يتوب عليهم}** [التوبة: 103] وعاقبته خطرة من حيث تأخيره وتسويفه، فربما يختطف قبل التوبة، فإن الأعمال بالخواتيم، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت، فتكون الخاتمة، فليراقب الأنفاس، وليحذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من المصرين، وهذه النفس هي الأمانة بالسوء، ويخاف على هذا سوء الخاتمة. فإن مات هذا على التوحيد، فإنه يرجى له الخلاص من النار، ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالى كريم، وخزائنه واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار فى طلب الدينار، فلو قيل له: فإذا كان الحق كريماً فاجلس فى بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا وقال: إنما الأرزاق بالكسب فيقال له: هكذا النجاة بالتقوى.

▲ 7- فصل [فيما ينبغي للتائب فعله]

وقد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتى بحسنات تضاد ما عمل من السيئات لتمحوها وتكفرها، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل، وأما اللسان، الاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: رب ظلمت نفسي فأغفر لي. روى فى الحديث، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: **" ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلى ركعتين، ويستغفر الله عز وجل، إلا غفر له"**. وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات.

▲ 8- فصل في دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار

اعلم: أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى بالدواء إلا مناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلا بضده، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة. الغفلة رأس

الخطايا، فلا دواء إلا للتوبة إلا بمعجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، كما يجمع فى السكنجيين حلاوة السكر وحموضة الخل، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء.

والأطباء لهذا المرض هم العلماء، لأنه مرض القلوب ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان، وإنما صار مرضها أكثر لأمر:

أحدها: أن المريض لا يدري أنه مريض.

الثاني: أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم، بخلاف مرض الأبدان، فإن عاقبته مشاهد ينفر الطبع عنه، وما بعد الموت غير مشاهد، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب، ويجتهد فى علاج البدن من غير اتكال.

الأمر الثالث: وهو الداء العضال فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا فى هذه الأعصار، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء، فلم يقدرُوا على تحذير الخلق استنكافاً من أن يقال لهم: فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء.

فإن قيل: فما ينبغي للواعظ سلوكه من الخلق؟ فالجواب: أن ذلك يطول، لكننا نشير إلى الأعمال النافعة فى ذلك، وهى أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر ما فى القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين، وما ورد فى الأخبار والآثار من ذلك، ويمزج ذلك بمدح التائبين.

النوع الثانى: حكايات الأنبياء عليهم السلام، والسلف الصالح، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحال آدم عليه السلام، وما لقي فى عصيانه الإخراج من الجنة، وما جرى لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار. وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ولأن عذاب الآخرة أشد، فينبغي أن يكثر من هذا على أسماع المصرين، فإنه نافع فى تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرر عندهم، أن تعجل العقوبة فى الدنيا متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهو سبب جانياته، فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله، والذنوب قد يتعجل فى الدنيا شؤمها، كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: "إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه". وقال فضيل بن عياض: إنى لأعصى الله، فأعرف ذلك فى خلق حماري وخادمي. وقال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة، ولا يفوت أحداً صلاة [جماعة] إلا بذنب يذنبه. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن المؤمن إذا أذنب كان نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، وذلك الران الذي ذكر الله عز وجل فى كتابه: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسون} [المطففين: 14] قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

وقال الحسن رحمه الله: الحسننة نور فى القلب، وقوة فى البدن، والسيئة ظلمة فى القلب، ووهن فى البدن.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات فى آحاد الذنوب، كشرب الخمر، والزنى، والقتل، والكبر، والحسد، والغيبة.

وينبغي أن يكون طبيباً يعلم الداء، ويدري كيف يصنع الدواء، فإن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أوصني، قال: "لا تغضب" وقال آخر: أوصني، فقال: "عليك باليأس مما في أيدي الناس"

فكانه تخايل في الأول مخايل الغضب، وفي الثاني مخايل الطمع. وهذا الذي ذكرنا هو علاج الغفلة، فيبقى علاج الشهوة، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا في كتاب "رياضة النفس" ولا بد من الصبر، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته، أو غفلته أو مضرته، فلا بد من مرارة الصبر، وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشباب مثلاً إذا غلبته شهوة، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعى وراء الشهوة، فينبغي أن يستحضر المخوفات التي جاءت في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة. والذي يهيج الشهوة من خارج، هو حضور المشتهى، والنظر إليه، وعلاجه: الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة، فأول الأمر حضور مجالس الذكر، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل، ثم التفكير فيما قيل، فينبعث الخوف، ويسهل الصبر، وتيسر الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله. فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟ فعن ذلك أجوبة: منها: أن العقاب الموعود ليس بحاضر. ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يعزم على التوبة، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب. ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر في نفسه أن كل ما هو أت قريب، والمسوف بيني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لا يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غداً؟ بل يتأكد بالاعتقاد، ومن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فراها قوية لا تنقطع إلا بمشقة شديدة، فقال: أواخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينظر الغلبة إذا ضعف وقويت. وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

كتاب الصبر والشكر

وهو شطران:

▲ **الأول: فضل الصبر وحقيقته وأقسامه** ونحو ذلك. وقد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له، فقال تعالى: **{وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا}** [السجدة: 24]. وقال: **{وتمت كلمة ربك الحسنى على نبي إسرائيل بما صبروا}** [الأعراف: 137] وقال: **{إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}** [الزمر: 10].

فما من قرية إلا أجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى (1): **{الصوم لي وأنا أجزي به}**. وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال: **{أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}** [البقرة: 157] والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأحاديث، ففي "الصحيحين" من حديث أبي سعيد رضى الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "ما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر" وفي حديث آخر: "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد" (2) وقال الحسن: الصبر من خاصية الإنسان، ولا يتصور في البهائم لنقصانها، وغلبة الشهوات عليها من غير شئ يقابلها، ولا يتصور الصبر أيضاً في الملائكة لكمالها، فإن الملائكة جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصدها عن حضرة الجلال.

وأما الإنسان فإنه يخلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، وليس له قوة الصبر، فإذا تحرك العقل وقوى، ظهرت مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها إلى المصالح الآخرة، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه، إلا أن الطبع يقتضي ما يحب، وباعث الشرع والعقل يمنع، والحرب بينهما قائمة، ومعركة هذا القتال قلب العبد، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحقق بالصابرين، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها، التحق بأتباع الشياطين، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى، فهذه المقاومة من خاصية آدميين.

▲ 1- فصل [في أقسام الصبر]

اعلم أن الصبر على ضربين:

أحدهما: بدني، كتحمل المشاق بالبدن، وكتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها.

الضرب الآخر: هو الصبر النفساني على مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج، سمي عفة، وإن كان الصبر في قتال، سمي شجاعة، وإن كان في كظم غيظ سمي حتماً، وإن كان في نائية مضجرة، سمي سعة صدر، وإن كان في إخفاء أمر سمي كتمان سر، وإن كان في فضول عيش سمي زهداً، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة.

وأما المصيبة، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات.

ثم اعلم أن العبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال، وذلك أن جميع ما يلقي العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين:

النوع الأول: ما يوافق هواه من الصحة، والسلامة والمال، والجاه، وكثرة العشيرة، والاتباع، وجميع ملاذ الدنيا، فالعبد محتاج إلى الصبر في جميع هذه الأمور، فلا يركن إليها، ولا ينهمك في التلذذ بها، ويراعى حق الله تعالى في ماله بالإنفاق، وفي بدنه بالمعونة للحق.

ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك في الملاذ والركون إليها، أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان، حتى قال بعض العارفين: المؤمن يصبر على البلاء، ولا يصبر على العافية إلا صديق.

وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: ابتلينا بالضراء فصبرانا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

ولذلك قال الله تعالى: [{لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله}](#) [المنافقون: 9] وقال تعالى: [{واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة}](#) [الأنفال: 28] [{إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم}](#) [التغابن: 14]

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، وهذا الصبر متصل بالشكر، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر، وإنما كان الصبر على السراء شديداً، لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ.

النوع الثاني المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية.

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنا ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببها جميعاً كالحج والجهاد.

ويحتاج المرید إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

حال قبل العبادة، وهى تصحيح النية، والإخلاص والصبر على شوائب الرياء، وحال في نفس العبادة، وهى أن لا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ من العمل.

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل: وهى الصبر عن إفشائه، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها.

القسم الثاني: الصبر عن المعاصي، وما أحوج العبد إلى ذلك.

ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله، كمعاصي اللسان من الغيبة، والكذب والمرء ونحوه، كان الصبر عليه أثقل، فترى الإنسان إذا لبس حريراً استنكر ذلك، ويغتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذلك. ومن لم يملك لسانه في المحاورات، ولم يقدر على الصبر، لم ينجه إلا العزلة.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت الاختبار: كالمصائب، مثل موت الأحبة، وهلاك الأموال، وعمى العين، وزوال الصحة، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات، لأن سنده اليقين. وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: ["من يرد الله به خيراً يصب به"](#).

وقريب من هذا القسم، الصبر على أذى الناس، كالذي يؤذى بقول أو فعل أو جناية على نفسه أو ماله، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت.

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب، قال الله تعالى: [{وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور}](#) [آل عمران: 186] وقال [{ولقد نعلم أنك بضيق صدرك بما يقولون}](#) [الحجر: 97] وقال: [{ولئن صرتم لهو خير للصائرين}](#) [النحل: 126].

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: [{الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر عن المصيبة حتى يردّها بحسن}](#)

عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الأخرى كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين" ((أخرجه ابن أبي الدنيا في "فضل الصبر" وأبو الشيخ في "الثواب" من حديث على رضى الله عنه وسنده ضعيف))

والأحاديث في فضائل الصبر كثيرة، منها: ما أخرجه في "الصحيحين" عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عز وجل بها عنه، حتى الشوكة يشاكها".

وفى حديث آخر: "ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها" أخرجه في "الصحيحين".

وفى حديث آخر: "لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، في جسده وفى ماله وفى ولده، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة".

وفى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال "الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة" قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: قال الله تعالى: "إذا وجهت إلى عبد من عبادي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا، أو أنشر له ديواناً" ((أخرجه ابن عدي في "الكامل" والديلمى في مسند الفردوس، والحكيم الترمذى في النوادر من حديث أنس بن مالك، وسنده ضعيف كما قال الحافظ العراقي))

▲ 2- فصل [في آداب الصبر]

ومن آداب الصبر استعماله في أول صدمة، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى" حديث صحيح.

ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة، لحديث أم سلمة رضى الله عنها وهو من رواية مسلم.

ومن الآداب سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز.

قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفاتت، ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب، كما فعلت أم سليم امرأة أبى طلحة لما مات ابنها، وحديثها مشهور في صحيح "مسلم".

وقال ثابت البناني: مات عبد الله بن مطرف، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد ادهن، فغضبوا، وقالوا: يموت عبد الله، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهنا؟! قال:

أفأستكين لها، وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلى من الدنيا وما فيها.

قال الله تعالى: [{الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}](#) [البقرة: 156 و 157].

وقال مطرف: ما شيء أعطى به في الآخرة قدر كوز من ماء، إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا.

وكان صلة بن شيم في مغزى له ومعه ابنه، فقال: أي بني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية، فقالت: مرحباً إن كنتن جئتن تهنئني، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن.

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم الله عز وجل الخفية.

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين، فيقول: انظروا ما يقوله لعوده، فإن هو حمد الله تعالى إذا دخلوا عليه، رفعوا ذلك إلى الله تعالى وهو أعلم. فيقول: لعبيدني إن أنا توفيتهم أن ادخله الجنة، وإن أنا شفيتهم أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه خطاياهم" ((أخرجه مالك في "الموطأ" 2/940: باب ما جاء في أجر المريض من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ورجاله ثقات إلا أنه مرسل، ووصله ابن عبد البر من طريق عباد بن كثير عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري، وعباد بن كثير ليس بالقوى))

وقال على رضى الله عنه: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك.

وقال الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد.

وقال رجل للإمام أحمد: كيف تجدك يا أبا عبد الله؟ قال: بخير في عافية. فقال له: حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك، لا تخرجني إلى ما أكره.

وقال شقيق البلخي: من شكى مصيبة به إلى غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً.

وقال بعض الحكماء: من كنوز البر كتمان المصائب، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها، وحكاياتهم مشهورة في ذلك.

منها: ما روي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر، وسوى عليه ثم استوى قائماً، فأحاط به الناس، فقال: رحمك الله بابني! قد كنت برأ بابيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لى مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً، ولا أرحى بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيرك الله إليه.

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب، فلا قدرة للآدمي على ذلك، وإن كان الفرح بوجودها كما حكيتم، فهو أبعد.

والجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب، وهو انزعاج الباطن، وإنما ينهى عن المكتسب، كمشق الجيوب، ولطم الخدود، والقول باللسان، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم، فذلك فرح شرح لا طبعي، إذ الطبع لا بد له من كراهة المصائب.

ومثال هذا رجل مريض له شربة لمرضه، فسعى في طلب حوائجها، وأنفق عليها مالا، فلما تمت، فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية، فأما طبعه، فما زالت عنه كراهة تناول أصلاً. ولو أن ملكاً قال لرجل فقير: كلما ضربت بك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار، لأحب كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجوا من عاقبة، وإن أنكاه الضرب، فكذلك السلف تلمحوا الثواب، فهان عليهم البلاء.

▲ 3- فصل في بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فمنهما تتركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج، إذ معنى العلاج: مضادة العلة.

ونضرب لك مثلاً، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء:

أحدها: مواظبة الصوم، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام.

الثاني: قطع أسباب المهيجة، فإنه إنما يهيج بالنظر، والنظر بالقلب، والقلب يحرك الشهوة، ودواء هذا العزلة، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهى، وذلك بالنكاح، وكل ما يشتهي الطبع من الحرام، ففي المباحات غنية عنه، وهذا هو العلاج الأرفع في حق أكثر الناس، لأن قطع الغذاء يضعف، ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا.

وينبغي للإنسان أن يعود نفسه المجاهدة، فإن من عود نفسه مخالفة الهوى، غلبها متى أراد.

واعلم: أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة، كف الباطن من حديث النفس، وإنما يشدد ذلك على من تفرغ واعتزل، فإن الوسوس لا تزال تجاذبه، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق، وجعل لهم هماً واحداً، وصرف الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى، وجميع أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه، دفع اشتغاله مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة، من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، فإن الفكر الباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، فهذا الذي يمكن أن ينال بالاكْتساب والجهد.

فأما مقادير ما ينكشف، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال والأعمال، فذلك يجري مجرى الصيد، وهو بحسب الرزق، فقد يقل الجهد، ويكثر الصيد، وقد يطول الجهد ويقل الصيد، والمعلوم وراء هذا الاجتهاد على جذبته من جذبات الرحمن عز وجل، فإنها توازي أعمال الثقلين، وليس ذلك اختيار العبد، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة، بأن

يقلع عن قلبه جواذب الدنيا، فان المجذوب إلى أسفل سافلين، لا يجذب إلى أعلى عليين، وكل منهوم بالدنيا هو منجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة، هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وآله وسلم: " **إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها** ". فالذي علينا تفريغ المحل، والانتظار لنزول الرحمة، كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش، ويضع فيها البذر، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر، ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلى سنة عن مطر، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات.

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب من حشيش الشهوات، وبذر الإرادة والإخلاص، وعرضه لمهاب ريح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم، كذلك انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب، كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي رمضان. والهمم والأنفاس أسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره.

الشرط الثاني من الكتاب

4. **في الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها ونحو ذلك**

قال الله تعالى: **{ وسنجزى الشَّاكِرِينَ }** (آل عمران: 145) وقال الله تعالى: **{ ما يفعل الله بِعَدَابِكُمْ إِنْ سَكَرْتُمْ وَأَمْثَمْتُمْ }** (النساء: 147) وقال: **{ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ }** (سبأ: 13) وقطع بالمزيد مع الشكر فقال: **{ لئن شكرتم لأزيدنكم }** [إبراهيم: 7] مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله: **{ فسوف بغنكم الله من فضله إن شاء }** [التوبة: 28] وقوله: **{ والله يرزق من يشاء }** [البقرة: 212] **{ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء }** [النساء: 48]، **{ ويتوب الله على من يشاء }** [التوبة: 15]. ولما عرف إبليس قدر الشكر في الطعن على بنى آدم: **{ ولا تحذأ أكثرهم شاكرين }** [الأعراف: 17].

وروى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وآله وسلم قام حتى تفتطرت قدماه، فقالت عائشة رضی الله عنها: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: **"أفلا أكون عبداً شاكرًا"**.

وعن معاذ رضی الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وآله وسلم: **"إني أحبك فقل: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"**.

5. **فصل [في كون الشكر بالقلب واللسان والجوارح]**

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

أما بالقلب، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد.

وأما بالجوارح، فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته، فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، فهذا يدخل في جملة شكر هذه الأعضاء.

والشكر باللسان: إظهار الرضى عن الله تعالى، وهو مأمور به. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **"التحدث بالنعم شكر، وتركها كفر"**.

وروى أن رجلين من الأنصار التقيا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحت؟ فقال: الحمد لله . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "قولوا هكذا".

وروى أن رجلاً سلم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فرد عليه، ثم قال له عمر: كيف أصبحت؟ قال: أحمد الله، فقال عمر: ذاك الذي أردت.

وقد كان السلف يتساءلون، ومرادهم استخراج الشكر لله، فيكون الشاكر مطيعاً، والمستنطق مطيعاً.

وقال أبو عبد الرحمن الحبلي: إن الرجل إذا سلم على الرجل، وسأله كيف أصبحت؟ فقال له الآخر: أحمد الله إليك، قال: يقول الملك الذي عن يساره للذي عن يمينه: كيف تكتبها؟ قال: أكتبه من الحامدين. فكان أبو عبد الرحمن إذا سئل: كيف أصبحت؟ يقول: أحمد الله إليك وإلى جميع خلقه.

▲ 6- فصل [في فعل الشكر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله]

اعلم: أن فعل الشكر وترك الكفران، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى، إذ معنى الشكر استعمال نعمة في محابه، ومعنى الكفران نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال، أو استعماله فيما يكرهه.

ولتمييز ما يحبه الله فيما يكرهه مدركان:

أحدهما: السمع، ومستنده الآيات.

والثاني: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير عزيز، ولذلك أرسل الله تعالى الرسل، وسهل بهم الطرق على الخلق، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع في. أفعال العباد، فمن لا يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

وأما الثاني: وهو النظر بعين الاعتبار، فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه: إذ ما خلق الله تعالى شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب. وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية.

أما الجلية، فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً، والليل سباتاً، فتتيسر الحركة عند الأبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس، لا كل الحكمة فيها، كذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار.

وأما الحكمة في خلق الكواكب، فخفية لا يطلع عليها كل الخلق، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم، نحو كونها زينة للسماء، وجميع أجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة، وكذلك أعضاء الحيوان، منها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً، كالعلم، بأن العين للإبصار، واليد للبسط، والرجل للمشي. فأما الأعضاء الباطنة، كالمرارة، والكلية والكبد، وآحاد العروق، والأعصاب وما فيها من التجايف والرقفة والغلظة، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالنسبة إلى علم الله تعالى، فكل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذي أريد به، فقد كفر نعمة الله تعالى فيه، فمن ضرب غيره بيده بغير حق، فقد كفر نعمة الله تعالى في اليد لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيها، ويتناول ما ينفعه، لا ليؤذي بها غيره، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم، فقد كفر نعمتها، ونعمة الشمس أيضاً، إذا

الإبصار يتم بها، فالعين والشمس خلقتا ليصير بهما ما ينفعه في دينه وديناه، ويبقى بهما ما يضره فيهما.

واعلم: أن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها، أن يستعين بها الخلق على الوصول إلى الله تعالى، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة، وكل ذلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، ولذلك قال تعالى: [{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}](#) [الذاريات:56] فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها، لإقدامه على تلك المعصية.

ولنذكر مثلاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء، حتى يعتبر بها، ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم، فيقول: من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير اللذين بهما قوام الدنيا، وهما حجران لا منفعة في أعينهما، ولكن يضطر الخلق إليهما، من حيث كل إنسان يحتاج إلى أعيان كثيرة، في مطعمه، ومشربه، وملبسه، ومركبه، وسائر حاجاته، وقد يعجز عما يحتاج إليه، ويملك ما يستغني عنه، كمن يملك قدراً من الزعفران مثلاً وهو يحتاج إلى جمل يركبه، وآخر يملك الجمل، وربما استغنى عنه، ويحتاج إلى الزعفران، فلا بد بينهما من معاوضة، ولا بد في مقدار العوض من تقدير، إذا لا يبذل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل، حتى يعطى مثله في الوزن والصورة. وكذا من يشتري داراً بثياب، أو عبداً بخف، أو دقيقاً بحمار، فهذه الأشياء لا تناسب بينهما، فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير، حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال، حتى تقدر بهما، فيقال: هذا الجمل يساوي مائة، وهذا القدر من الزعفران يساوي مائة، فحصل التساوي بينهما حينئذ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنقدين، إذ لا غرض في أعينهما، فإنه لو كان في أعينهما فرض لم ينتظم الأمر، فخلقهما الله لتداولها الأيدي، ويكون حاكمين بين الأموال بالعدل، وجعلهما عزيزين في أنفسهما، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة، فمن ملكهما، فكانه ملك كل شيء.

إذا عرفت حكمتهما، فكل من عمل فيهما عملاً يخالف المقصود منهما، ولا يليق بحكمتهما، فقد كفر نعمة الله فيهما، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما، ومنع الأيدي من تداولهما. ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا يدرك بعين البصر، بل بعين البصيرة، أخبرهم الله تعالى بكلام سمعوه بواسطة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وآله وسلم، فقال: [{والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشربهم عذاب ألم}](#) [التوبة:34].

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية، فقد كفر نعمة الله فيهما، لأنه أسوأ حالاً ممن كنزهما.

ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد في الحياكة والكنس والأعمال التي يقوم بها أخس الناس، وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة من كونهما قيم الأشياء، فمن لم تتكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلهية قيل له: ["من شرب في إناء ذهب أو فضة، فإنما يجر جر في بطنه نار جهنم"](#) وكذلك كل من عامل بالربا في الدراهم والدنانير، فقد أخرجهما عن مقصودهما، فهذا مثال لحكمة خفية من حكم النقدين.

فينبغي أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثل في غيره من جميع أمورك، في حركتك، وسكونك، ونطقك، وسكوتك في كل فصل صادر منك، إما شكراً أو عكسه، وهو الكفر وبعض ذلك تصفه بالكراهة، وبعضه بالخطر.

ومن ذلك أن الله تعالى خلق لك يدين، جعل إحداهما أقوى من الأخرى، فاستحقت بمزيد القوة رجاءاً وشرفاً على الأخرى، وقد أحوجك من أعطاك اليمين إلى أعمال، بعضها شريفة، كأخذ المصحف، وبعضها خسيصة، كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار، وأزلت النجاسة باليمين، فقد عكست المقصود، وخصت الشريف بما هو خسيس، فظلمته، وكذلك في الرجلين، إذا ابتدأت باليسرى في لبس الخف، فقد ظلمت اليمنى، لأن الخف وقاية الرجل، وقس على ذلك.

وكذلك نقول: من كسر غصناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح، فقد خالف الحكمة في خلق الأشجار، لأنها خلقت للمنفعة بها، فإن كان كسره لغرض صحيح، فلا بأس، وإن فعل ذلك في ملك غيره، فهو ظالم، وإن كان محتاجاً، إلا أن يأذن صاحبه.

▲ 7- فصل في بيان النعم وحقيقتها وأقسامها

واعلم: أن كل مطلوب يسمى نعمة، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الآخروية، وتسمية ما عداها نعمة تجوز، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام:

أحدهما: ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً، كالعلم، وحسن الخلق، وهو النعمة الحقيقية.

الثاني: ما هو ضار فيهما جميعاً، وهو البلاء حقيقة.

القسم الثالث: ما ينفع في الحال، ويضر في المآل، كالتلذذ، واتباع الشهوات، فهو بلاء عند ذوى الأبصار، والجاهل يظنه نعمة.

ومثاله: الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلاً، فإذا علم ذلك عدة بلاء.

القسم الرابع: الضار فبالحال، النافع في المآل، وهو نعمة عند ذوى الأبواب، بلاء عند الجهال.

ومثاله: الدواء الشنيع مذاقه في الحال، الشافي في المآل من الأسقام، فالصبا للجاهل، إذا كلف شربه ظنه بلاء، والعاقل يعده نعمه، وكذلك إذا احتاج الصبي إلى الحمامة، فإن الأب يدعو إليها ويأمره بها، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء، والأم تمنعه من ذلك لفرط حباها وشفقتها، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك، فالصبي يتقلد من أمه بجهله، ويأنس إليها دون أبيه، ويقدر أباه عدواً، ولو عقل لعلم أن الأم هي العدو الباطن في صورة صديق، لأن من منعها إياه من الحمامة يسوقه إلى أمراض أشد من ألم الحمامة، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل، وكل إنسان صديق نفسه، ولكن النفس صديق جاهل، فلذلك تعمل بما لا يعمل العدو.

▲ 8- فصل في بيان كثرة نعم الله وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم: أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية.

أما الغاية فهي سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لاجهل معه، وغنى لا فقر بعده، وهى السعادة الحقيقية.

وأما القسم الثاني: فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة، وهى أربعة أقسام:

أعلاها: فضائل النفس، كالإيمان وحسن الخلق.

الثاني: فضائل البدن، من القوة والصحة ونحوهما.

الثالث: النعم المطيعة للبدن، من المال والجاه والأهل.

الرابع: الأسباب التي جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل، من الهداية والإرشاد، والتسديد، والتأييد، وكل هذه نعم عظيمة.

فإن قيل: ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما؟

قلنا: هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح، والآلة المستعملة للمقصود.

أما المال، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية، كان كساع إلى الهيجاء بغير سلاح، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات في طلب القوت، فيشغله عن تحصيل العلم، وعن الذكر، والفكر، ونحو ذلك.

وأما الجاه فيه يدفع عن نفسه الذل والضيم، ولا ينفك عن عدو يؤذيه، وظالم يهوش عليه، فيشغل قلبه، وقلبه رأس ماله، وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه.

وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها، فهي نعم، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك.

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "نعمتان مغبون فيهما كثر من الناس: الصحة، والفراغ".

ولما سئل: من خير الناس؟ قال: "من طال عمره وحسن عمله".

وأما المال والجاه، وإن كانا نعمتين، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم، وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق.

وأما الهداية والرشد والتسديد والتأييد، فلا خفاء في كونهما من أعظم النعم، فلا يستغني أحد عن الحاجة إلى التوفيق، ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

▲ 9- فصل [من نعم الله الأسباب التي يتم بها الأكل]

واعلم: أنا قد ذكرنا جملة من النعم، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة في الرتبة الثانية، فلو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة، لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التي يتم بها الأكل على سبيل التلويح، لا على سبيل الاستقصاء، فنقول: من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في الحواس الخمس، التي هي آلة للإدراك.

فأولهما: حاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشم تدرك الرائحة من بعيد، ولكن لا تدرى من أي ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذي شممت رائحته، وربما لم تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجار عند جريان الحركات، ولا يكفى ذلك، لو لم يكن لك حسن الذوق، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك، بخلاف الشجرة، فإنه يصب في أصلها كل مائع، ولا ذوق له فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى، هي أشرف من الكل، وهو العقل، وهو تدرك الأطعمة ومنفعتها، وما يضر في المال، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أدنى فوائد العقل، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة فهي بعض الحركات، ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك، فإن البصر واحد من الحواس، والعين آلة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة، بعضها رطوبات، وبعضها أعشبية مختلفة، لكل واحد من الطبقات العشر صفة، وصورة، وشكل، وهيئة، وتدبير، وتركيب، لو اختلف طبقة واحدة أو صفة واحدة لاختل البصر، وعجز عنه الأطباء كلهم، فهذا في حس واحد، وقس حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يستوفى ذلك في مجلدات، فكيف ظنك بجمع البدن؟!

ثم انظر بعد ذلك في خلق الإرادة والقدرة، وآلات الحركة في أصناف النعم، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام، ولم يخلق لك في الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة، كان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فخلق الله لك شهوة الطعام وسلطها عليك، كالمتقاضى الذي يضطرك إلى تناول الغذاء.

ثم إن الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام، لأسرفت وأهلكت نفسك، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، وكذلك القول في شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل.

ثم خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء وغيره، منها اليدان، وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات وتمتد وتثني، ولا تكون كخشبة منصوبة.

ثم جعل رأس اليد عريضاً، وهو الكلف، وقسمه خمسة أقسام، وهى الأصابع وجعلها مختلفة في الطول والقصر، ووضعها في صفيين، بحيث يكون الإبهام في جانب، ويدور على الأصابع البواقى، ولو كانت مجتمعة متراكمة، لم يحصل تمام الغرض، ثم خلق لها أطافر، وأسند إليها رؤوس الأصابع، لتقوى بها، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التي لا تحوبها الأصابع، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك، فجعل لك الفم واللحيين، خلقهما من عظمين، وركب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام، فبعضها قواطع كالرباعيات، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضراس، وجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك، فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى، وإن كل رحي صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى، إلا هذه الرحي التي هي من صنع الله سبحانه وتعالى، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى، إذ لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء، الشريفة التي يحتوى عليها.

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة، كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق. ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس، فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة. انظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام. ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهو في الفم، فإنه لا يمكن إيصاله باليد، فهياً الله تعالى المريء والحنجرة، وجعل رأسها طبقات ينفث لأخذ الطعام، ثم ينطبق وينضغط حتى يقبل الطعام، فيهوى في دهليز المريء إلى المعدة، فإذا ورد الطعام إلى المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخاً تاماً، فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيه الطعام، فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب، وينضج بالحرارة التي تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة، وهى الكبد من جانبها الأيمن، والطحال من جانبها الأيسر، والترب (3) من أمامها، ولحم الصلب من خلفها، فينضج الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر، ثم يتفرق في الأعضاء ويبقى منه ثقل ثم يندفع. ولو استوفينا الكلام في ذلك لطلال.

وفى الآدمي من العضلات والعروق ما لا يحصى، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ، ولا شئ منها إلا وفيه حكمة، وكل ذلك من الله سبحانه، ولو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين.

فانظر إلى نعم الله تعالى عليك، لتقوى على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل، وهى أحسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع وتأكّل، والبهيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكّل، وتتعب فتنام، وتشتهى فتجامع، وإذ لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار، فكيف تقوم بشكر الله؟ وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر نعم الله تعالى، فقس على ذلك.

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه، أقل من قطرة في بحر. قال الله تعالى: **{وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها}** [إبراهيم: 34 والنحل: 17].

▲ 10- فصل [في عجائب الأغذية والأدوية]

واعلم: أن الأطعمة كثيرة مختلفة، والله تعالى في خلقها عجائب لا تحصى، وهى تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها.

فنتكلم عن بعض الأغذية، فنقول: إذا كان عندك شئ من الحنطة، فلو أكلتها لفنيت وبقيت جائعاً، فما أوجك إلى عمل ينمى به حب الحنطة ويتضاعف حتى يفي بتمام حاجتك، وهو زرعها، وهو أن تجعلها في أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً، ثم لا يكفى الماء والتراب، إذ لو تركت في الأرض ندية صلبة، لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها إلى أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها، ثم الهواء لا يتحرك إليه بنفسه، فيحتاج إلى ربح تحرك الهواء، وتصرفه بقهر على الأرض، حتى ينفذ فيها، ثم كل ذلك لا يغنى، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف، فإنه لو كان في البرد المفرط لم ينبت. ثم انظر إلى الماء الذي يحتاج إليها هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى؟ فجر العيون وأجرى منها الأنهار، ولما كان بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء، أرسل إليها الغيوم، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم، وهى سحب ثقالة، ثم يرسله على الأرض مدراراً في وقت الحاجة. وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء، تنفجر منها العيون تدريجاً، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره.

هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدى ذلك؟ قال: نعم قال فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه!

وهذا يبين أن نعمة الله على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة.

اعلم: أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى من نعم الله نعماً كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس، بل قد يشاركه في ذلك كثير منهم، من ذلك العقل، فما من عبد إلا وهو راض عن الله سبحانه في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلما يسأل الله العقل، وإذا كان ذلك اعتقاده، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك.

ومن ذلك الخلق، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها، وأخلاقاً يذمها، ويرى نفسه بريئاً منها، فينبغي أن يشكر الله تعالى على ذلك، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره.

ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء عنه حتى أطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة؟ فلم لا يشكر الله بستره الجميل على مساويه، حيث أظهر الجميل وستر القبيح.

ولننزل إلى طبقة أعم من هذا القبيل، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته، أو أخلاقه أو صفاته، أو أهله، أو ولده، أو مسكنه أو بلده، أو رفيقه أو أقاربه، أو جاهه، أو سائر محابه، أموراً، لو سلب ذلك وأعطى ما خصص به من ذلك غيره، لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً، وحيماً لا جماداً، وإنساناً لا بهيمة، وذكراً لا أنثى، وصحيحاً لا مريضاً، وسليماً لا معيباً، فإن كل هذه خصائص.

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره، مثل أن يعرف شخصاً يرتضى لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه، إما على الجملة، أو في أمر خاص، فإن الله عليه نعماً ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض، فليتنظر إلى عدد المغبوظين عنده، فإنه يراه عنده لا محالة أقل من غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممن فوقه، فما باله ينظر فوقه ولا ينظر إلى من دونه؟!

وفى "الصحيحين" عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فليتنظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه" وقد رواه الترمذي بلفظ آخر: "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم" فإن من اعتبر حال نفسه، وفتش على ما خص به، وجد لله تعالى نعماً كثيرة، لا سيما من خص الإيمان، والقرآن، والعلم، والسنة، ثم الفراغ، والصحة والأمن وغير ذلك.

وقد روى في بعض الأحاديث "من قرأ القرآن فهو غنى" وفى لفظ "القرآن غنى لا فقر بعده، ولا غنى دونه" (4) .

وفى حديث آخر: "من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها".

وقال بعضهم:

إذا ما القوت يأتي لك والصحة والأمن

وأصبحت أبا حزن فلا فارقك الحزن

فإن قيل: فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى ؟

فالجواب: أما القلوب المبصرة، فتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله عز وجل، وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء، فسيبيل صاحبها أن ينظر أبداً إلى من دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء، فإنه كان يحضر دار المرضى ليُشاهد أنواع البلاء عليهم، ثم يتأمل صحته وسلامته، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات، ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا، ليتدارك من عصا عصيانه، وليزيد في الطاعة من أطاع، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فإذا شاهد المقابر، وعلم أحب الأشياء إليهم، فليصرف بقية عمره في طاعة الله تعالى وشكره في الإمهال، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله، وهو التزود للآخرة.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت.

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

▲ 11- فصل في بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد

لعلك تقول: قد ذكرت أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر، وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البلاء؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر؟ فإن الصبر يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً، وهما متضادان.

فاعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، وأنه ليس كل بلاء يأمر بالصبر عليه، مثل الكفر، فإنه بلاء، ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعاصي، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء، فيكون كمن به علة، وهو لا يتألم بها، بسبب غشيتته، والمعاصي يعرف عصيانه، فعليه ترك المعصية، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يأمن الصبر عليه، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه، لم يأمر بالصبر على ذلك، بل يأمر بإزالة الألم، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذا يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجهه، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر، فإن الغني مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان، حتى يقصد قتله بسبب ماله، والصحة أيضاً كذلك، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء وقد يكون على العبد في بعض الأمور بلاء وفيه نعمة.

مثال ذلك. جهل الإنسان بأجله، فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش، وطال بذلك غمه، وكذلك جهله بما يضمه بعض الناس له، إذ لو اطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره، إذ لو عرف منه ذلك، أبغضه وأذاه، فكان ذلك وبالاً عليه.

ومن ذلك إبهام القيامة، وليفة القدر، وساعة الجمعة، وكل ذلك نعمة، لأن الجهل يوفر الدواعي على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل، فكيف في العلم؟!

وقد قلنا: إن لله سبحانه في كل موجود نعمة، حتى إن الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم، وقد تكون نعمة في حق غيره، كالم الكفار في النار في الآخرة، فإنه نعمة في حق أهل الجنة، إذ لو لم يعذب قوم، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشترط فرحهم بنور الشمس، مع شدة حاجتهم إليها مع أنها عامة ومبذولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء، وهي أحسن من كل نبت، لأنها عامة، فلذلك لم يشعروا بها، ولم يفرحوا بسببها، فإذا صح قولنا: إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة، إما على جميع العباد، أو على بعضهم، ففي خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً، إما على المبتلى، أو على غيره، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر في كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق، ولا نعمة مطلقة، فإن الإنسان قد يفرح بالشيء الواحد من وجه، ويغتم به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح.

واعلم: أن في كل فقر، ومرض، وخوف، وبلاء في الدنيا، خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها، ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليها أكثر منها، لأن مقدورات الله تعالى لا تتناهى، فلو أضعفها الله عز وجل على العبد، فما كان يمنعه؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم.

الثاني: أن المصيبة لم تكن في الدين.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى علىّ فيه أربع

نعم، إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه.

قال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط، فاقتصر على عشرة فهو مسحق للشكر.

الثالث: أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخره إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخفف، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم، فلا سبيل إلى تخفيفها، ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانياً، كذا ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وفى "صحيح مسلم": "إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها".

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، ولم يكن بد من وصولها إليه، فقد وصلت واستراح منها، فهي نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي، فإنه لو خلى واللعب، لكان يمنعه، ذلك من العلم والأدب، فكان يخسر طول عمره، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء، قد تكون سبباً لهلاكه، فالملحدون غداً يتمنون أن لو كانوا مجانين وصبياناً، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد، إلا ويتصور أن يكون له في ذلك خبرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله عز وجل، ويقدر الخيرة فيما أصابه، ويشكر الله تعالى عليه، فإن حكمة الله تعالى واسعة، وهو أعلم بمصالح العباد منهم، وغداً

يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه، كما يشكر الصبي بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذ رأى ثمرة ما استفاد من التأديب.

والبلاء تأديب من الله تعالى، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد.

وفى الحديث : "لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له".

وأيضاً، فاعلم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والأنس بها، فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها، فصارت سجناً له، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن.

وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعاً بلا أجر فإنك تتألم وتفرح، فتصبر على الألم، وتشكر على سبب الفرح، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلاء، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة.

وقد روى أن أعرابياً عزى ابن عباس رضى الله عنه بآبيه فقال:

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الرأس

خير من العباس صبرك بعده والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس رضى الله عنهما: ما عزاني أحد أحسن من تعزيتيه.

وقد سبق ذكر أنواع البلاء، وثواب الصبر عليها.

فإن قال قائل: الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم، فهل لنا أن نسأل الله عز وجل البلاء؟

فالجواب: أنه لا وجه لذلك، فإن في الحديث من رواية أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرح، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "هل كنت تدعو بشيء أو تسأله؟" قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لى في الدنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه، فهلا قلت: اللهم آتني في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار".

ومن حديث أنس رضى الله عنه أيضاً، أن رجلاً قال: يا نبي الله: أي الدعاء أفضل؟ قال: "سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة" ثم أتاه الغد، فقال يا رسول الله، أي الدعاء أفضل؟ قال: "سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة" ثم أتاه اليوم الثالث، فقال: "سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فإن أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت".

وفى "الصحيحين" انه صلى الله عليه وآله وسلم قال: "تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشفاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء".

وقال مطرف: لأن أعافى فأشكر، أحب إليّ من أن ابتلى فأصبر.

▲ 12- فصل في بيان أيهما أفضل الصبر أم الشكر

واختلف الناس: هل الصبر أفضل من الشكر، أو بالعكس؟ وفي ذلك كلام طويل، ذكره المصنف رحمه الله، وتلخيص القول فيه: أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات.

فأقل درجات الصبر، ترك الشكوى مع الكراهة، ووراءها المرضى، وهو مقام وراء الصبر، ووراء ذلك الشكر على البلاء وهو وراء الرضى.

و درجات الشكر كثيرة، فإن حياء العبد مع تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بالصبر عن الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر، وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغیرها شكر، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهى درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر؟

لكن نقول: إذا أُضيف إلى الشكر الذي هو صرف المال إلى الطاعة، فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرح بنعمة الله عز وجل، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التنعيم المباح، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار.

وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية، بل يصرفه إلى التنعيم المباح، فالصبر هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له في المباحات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى، وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر على الشكر، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص، لأن السابق إلى إفهام الناس، من نعمة الأموال، والغنى بها، والسابق من الإفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله، فإذن الصبر الذي يعتمده العامة أفضل من هذا الشكر الذي يفهمونه، ومتى لحظت المعنى الذي ذكرناه، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما ذكر، ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغنى الذي يرى نفسه مثل الفقير الذي لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة، وبصرف الباقي في الخيرات، أو يمسكه على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منه، فهذا أفضل من الفقير الصابر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

كتاب الرجاء والخوف

اعلم: أن الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع طريق الآخرة كل عقبة كؤود، ولا بد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما، وما يتعلق بذلك، ونحن نذكرهما في شطرين:

▲ الشطر الأول: الرجاء.

واعلم: أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، فإن كان عارضاً سريع الزوال سمى حالاً، كما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة، كصفرة الذهب، وإلى سريعة، كصفرة الوجل، وإلى ما بينهما كصفرة المرض، وكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام، وإنما سمى غير الثابت حالاً، لأنه يحول عن القلب.

واعلم: أن كل ما يلاقيك من محبوب أو مكروه ينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى.

فالأول: يسمى جداً وذوقاً وإدراكاً.

والثاني: يسمى ذكراً وإن كان قد خطر ببالك شئ في الاستقبال، وغلب على قلبك، سمي انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر محبوباً، سمي رجاء، وإن كان مكروهاً، سمي خوفاً.

فالرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المتوقع لا بد له من سبب حاصل، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء، سمي تمنياً، لأنه انتظار من غير سبب، ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، فأما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولكن يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار ومساقى الماء إليها.

وإن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقل أن ينفع مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ولا عفن، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهذا يسمى انتظاره رجاء.

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يتعاهدها أصلاً، ثم انتظر الحصاد، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً، لا رجاء.

وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، سمي انتظاره تمنياً لا رجاء.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حمقاً وغروراً. قال الله تعالى: [﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾](#) [الأعراف: 169] ودم القائل: [﴿ولئن رددت إلى ربي لأحدن خيراً منها منقلباً﴾](#) [الكهف: 36].

وروى شداد بن أوس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل الأماني ")

وقال معروف الكرخي رحمه الله : رجائك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق، ولذلك

قال الله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ}** [البقرة: 218]. المعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك.

واعلم: أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

وأما الخوف، فليس بصد الرجاء، بل رفيق له، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وجال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن أثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله عز وجل، والتنعم بمناجاته، والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لا بد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك، أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله سبحانه وتعالى؟ فمتى لم يظهر، استدل به على حرمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات، فهو مغرور.

▲ 1- فصل في فضيلة الرجاء

روى في " الصحيحين " من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وفي رواية أخرى " فليظن بي ما شاء".

وفي حديث آخر من رواية مسلم: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله".

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أحبنى، وأحب من يحبني، وحبنى إلى خلقي. قال: يارب: كيف أحبك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر الآثي وإحساني.

وعن مجاهد رحمه الله قال: يؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النار، فيقول: ما كان هذا ظني فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لي، فيقول: خلو سبيله.

▲ 2- فصل في دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به

اعلم: أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان:

إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة.

وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله.

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تقلب في حقه سموماً، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة، مضر لمن غلبت عليه الحرارة.

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً، ناظراً إلى مواضع العلل، معالجاً كل علة بما يليق بها، وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في

التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه، لإصلاح المرضى.

وقد قال على رضى الله عنه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم مكر الله.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن من أسباب الرجاء، ما هو من طريق الاعتبار، ومنها ما هو من طريق الأخبار.

أما الاعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم فى كتاب الشكر، فإذا علم لطائف الله تعالى بعباده فى الدنيا، وعجائب حكمته التى راعاها فى فطرة الإنسان، وأن لطفه الإلهي لم يقصر عن عباده فى دقائق مصالحهم فى الدنيا، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات فى الرتبة، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد؟! فإن من لطف فى الدنيا يلطف فى الآخرة، لأن مدبر الدارين واحد.

وأما استقراء الآيات والأخبار، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً } [الزمر: 53]. وقال تعالى: { والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض } [الشورى: 4].

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه، وإنما خوف بها أوليائه، فقال: { لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده } [الزمر: 16]. وقال تعالى: { واتقوا النار التى أعدت للكافرين } [آل عمران: 131]. وقال: { فأذرتكم ناراً تطفى* لا يصلها إلا الأشقى* الذى كذب وتولى } [الليل: 14-16]. وقال تعالى: { وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم } [الرعد: 6].

ومن الأخبار ما روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إن إبليس قال لربه عز وجل: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم. فقال الله عز وجل: فبعزتي وجلالى، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني (1).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "والذى نفسى بيده، لو لم تذبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذبون، فيستغفرون فيغفر لهم" رواه مسلم.

وفى "الصحيحين" من حديث عائشة رضى الله عنها، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "سودوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل أحداً الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته".

وفى "الصحيحين" من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم: قم فابعث بعث النار فيقول: لبيك وسعديك والخير فى يديك. يارب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ يشيب المولود، { وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد } [الحج: 2]. فشق ذلك على الناس، حتى تغيرت وجوههم، وقالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد" فقال الناس، حتى تغيرت وجوههم، وقالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: الله أكبر. فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: "والله إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. والله إنى

لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. فكبر الناس، فقال: " ما أنتم يومئذ فى الناس إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض".

فانظر كيف جاء بالتخويف، فلما أزعج جاء باللطف، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى، فينبغي أن تزعج فإذا اشتد قلقها، ينبغي أن تسكن ليعتدل الأمر.

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ليغفر الله عز وجل يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر.

وروى أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يصفه وقال: إن أسلمت، أضفتك، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه، فرده وأخبره فى الحال، فتعجب من لطف الله تعالى. فأسلم.

فهذه الأسباب التي تجلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين. فأما الحمقى المغرورون، فلا ينبغي أن يسمعوها شيئاً من ذلك، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك، كعبد السوء الذي لا يستقيم إلا بالعصا.

▲ الشطر الثاني من الكتاب في

3- الخوف وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

اعلم: أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال.

مثال ذلك، من جنى على ملك جنابة، ثم وقع فى يده، فهو يخاف القتل، ويجوز العفو، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وتفاحش جنابته، وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سبب جنابة، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله، إذ قد علم أن الله سبحانه، لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه، وبجلال الله تعالى واستغنائه، وأنه لا يسأل عمل يفعل، يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية".

وقال تعالى: [{إنما يخشى الله من عباده العلماء}](#) [فاطر: 28] وإذا كملت المعرفة، أثرت الخوف، ففاض أثرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشى، وقد يفضي إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل.

وأما ظهور أثره على الجوارح، فيكفها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل.

قال بعضهم: من خاف أدلج.

وقال آخر: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه.

ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العيسل مكروهاً عند من يشتهيهِ إذ علم أن فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في مخالِب سيع ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، ففوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمى ورعاً، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

▲ 4. فصل [الخوف سوط الله تعالى]

اعلم: أن الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

والخوف، له إفراط، وله اعتدال، وله قصور.

والمحمود من ذلك الاعتدال، وهو بمنزلة السوط للبهيمة فإن الأصلاح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، وليس المبالغة في الضرب محمودة ولا التقاصر عن الخوف أيضاً محمود، وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية، أو سبب هائل، فيورث البكاء، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهو خوف قاصر قليل الجدوي، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغالب على الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعنى العلماء بالله وبآياته، وقد عز وجودهم. وأما المرتسمون برسوم العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف.

وأما القسم الأول، وهو الخوف المفرط، فهو كالذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، فهو أيضاً مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج المرض والوله والموت، وليس ذلك محموداً، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه، فهو مذموم، وفائدة الخوف الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة والفكر، والذكر، والتعبد وسائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعى الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في ذلك شيء، كان مذموماً.

فإن قيل: فما تقول فيمن مات من الخوف؟

فالجواب: أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف، إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة، كان أفضل، فإن أفضل السعادة طول العمر في طاعة الله تعالى، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران.

▲ 5. بيان أقسام الخوف

اعلم: أن مقامات الخائفين تختلف، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة . وأعلى من هذا خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة ، لا يسأل عما يفعل .

وقد قال : " هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي " .

ومن أقسام الخائفين ، من يخاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر ، ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى ، والخوف من المناقشة والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدین.

▲ 6- فصل في فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منهما.

فضيلة كل شيء بقدر إعنته على طلب السعادة، وهى لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة. قال الله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن: 46]. وقال تعالى: {رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه} [البينة: 8].

وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها"

وفى حديث آخر: "لن يغضب الله على من كان فيه مخافة" (2)

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عز وجل: " وعزتي وجلالى، لا أجمع على عبدى خوفين، ولا أجمع له أمينين، إن أمني في الدنيا، أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا، أمنت يوم القيامة "

وعن ابن عباس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله."

واعلم: أن قول القائل: أيما أفضل الخوف، أو الرجاء؟ كقوله: أيما أفضل الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يقال الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، نظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان، والخوف والرجاء دواء أن يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل. ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السكنجيين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجيين يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر، فالحاجة إلى الخبز أكثر، فهو أفضل بهذا الاعتبار، لأن المعاصي والاعتزاز من الخلق أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأن الرجاء يستقي من بحر الرحمة ، والخوف يستقي من بحر الغضب .

وإما المتقي ، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء ، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لاعتدلا.

قال بعض السلف: لو نودي: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولو نودي: ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل. وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقى.

فإن قيل: كيف اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى؟ فينبغي أن يكون رجاءه أقوى.

فالجواب: أن المؤمن غير متيقن صحة عملهن فمثله مثل من بذر بذراً ولم يجرب جنسه في أرض غريبة، والبذر الإيمان، وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب، وخفايا خبثه وصفائه من النفاق، وخبايا الأخلاق غامضة، والصواعق أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكل هذا يوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن؟

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة رضى الله عنه: هل أنا من المنافقين؟ وإنما خاف أن تلبس حاله عليه، ويستتر عيه عنه، فالخوف المحمود هو الذي يبعث على العمل، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للإنسان الرجاء، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل، وليس ثمة عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط (3)

قلبه، والرجاء في هذه الحال يقوى قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى، محباً، للقائه، حسن الظن به.

وقد قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره: حدثني بالرخص، لعلنى ألقى الله وأنا أحسن الظن به.

7- فصل في بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف

وذلك يحصل بطريقتين:

أحدهما أعلى من الآخر. مثاله أن الصبي إذا كان في بيت، فدخل عليه سبع، أو حية، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبي، وخاف موافقة لأبيه، فخوف الأب عن معرفة، وخوف الولد من غير معرفة، بل هو تقليد لأبيه.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونها جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان، أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالتذكر، والتفكير في عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفين. قال الله تعالى:

{ [ويحذركم الله نفسه](#) } [آل عمران: 3].

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب.

قال ذو النون: خوف النار عند خوف الفراق، كقطرة في بحر، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف، ولكن بمجرد التقليد، فهو يضاهاى خوف الصبي من الحية، تقليداً لأبيه، فلذلك يضعف، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات، واجتناب المعاصي، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة اله تعالى، خافه بالضرورة، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه، بل يخاف بالضرورة. من قصر، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، ويسبب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء لهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفى "صحيح مسلم" من حديث عائشة رضی الله عنها، قالت: دعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصفير الجنة، لم يدرك الشر ولم يعمله، قال: "أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله عز وجل خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم.

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: { [وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى](#) } [طه: 82] فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات قوله تعالى: { [والعصر* إن الإنسان لفي خسر](#) } [العصر: 2-1] ثم ذكر بعدها أربعة شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال تعالى: { [ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين](#) } [السجدة: 13].

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع في التحيل، فأما ما حق في القدم، فلا يمكن تداركه فليس إلا التسليم، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه، وروح قلوبهم بالرجاء، لاحترقت من نار الخوف.

وقال أبو الدراء رضی الله عنه: ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه.

ولما حضرت سفيان الثوري الوفاة، جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله: أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض وقال: والله لذنوبي أهون عندي من هذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت.

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: المرید يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر. ويروى أن نبياً من الأنبياء، شكاً إلى الله تعالى الجوع والعري، فأوحى الله عز وجل إليه: عبدي، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرني حتى تسألني الدنيا؟!!

فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى قد رضيت، فاعصمني من الكفر.

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء؟!!

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل البدعة، والنفاق، والكبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أنى برى من النفاق، كان أحب إلى مما طلعت عليه الشمس، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، إنما أرادوا نفاق الأعمال، كما ورد فى الحديث الصحيح: "أية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان".

وسوء الخاتمة على رتبتين:

إحداهما أعظم، وهو أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله، فيقتضى ذلك العذاب الدائم.

والثانية دونها، وهى أن يسخط الأقدار، ويتكلم بالاعتراض، أو يجوز فى وصيته، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب.

وقد روى أن الشيطان لا يكون فى حال أشد على ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أنه كان يدعو: "اللهم إنى أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت"

يرضى بقضاء الله عز وجل.

والأسباب التى تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك. أما الختم على الشك والجحود، فسببه البدعة، ومعناها أن يعتقد فى ذات الله تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بان له بطلان ما اعتقده، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له.

ومن اعتقد فى الله سبحانه وصفاته اعتقاداً مجملاً على طريق السلف من غير بحث ولا تنقير، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى.

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمان فى الأصل، وذلك يورث الانهماك فى المعاصي، والمعاصي مطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفاً، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذى يفضي إلى مثل هذا الخاتمة، وهو حب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد فى قلبه حب الله تعالى، أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، وكل من مات على محبة الله تعالى، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلاً عما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح فى حال، خطر بباله فيها لإنكار على الله سبحانه فى فعله، أو كان مصراً على مخالفته، قدم على الله قدوم من قهرراً، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.

وقد ورد في الصحيحين " من حديث سهل بن سعد، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: " إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه لمن أهل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار".

وروى: " إن العبد إذا عرج بروحه إلى السماء، قالت الملائكة: سبحان الله! نجا هذا العبد من الشيطان: يا ويحه! كيف نجا؟! وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسوية بالاستعداد، فإن العمر قصير، كل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمك، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه.

واعلم: أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تقنع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك، فانك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر في اشتداد خوفهم، لعلك تستعد لنفسك.

▲ 8- ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله تعالى في صفتهم: {[يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون](#)} [النحل: 50].

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " إن لله ملائكة ترعد فرائضهم من مخافته " (4). وذكر تمام الحديث.

وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عينيه مثل الأنهار، فإذا رفع رأسه قال: سبحانك ما تخشى حق خشيتك، فيقول الله: لكن الذين يحلفون باسمي كاذبين لا يعلمون ذلك.

وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لما كان ليلة أسرى بي، رأيت جبريل عليه السلام كالشن (5) ((الشن: القرية الخلق.)) "البالي من خشية الله تعالى".

وبلغنا أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكي فقال: له: " ما يبكيك، قال: ما جفت لى عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصيه، فليقيني فيها".

وعن يزيد الرقاشى قال: إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجرى أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يمدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب عز وجل: يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يارب! لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً، ولا انبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر.

وقال محمد بن المنكدر: لما ظهر من إبليس ما ظهر، طفق جبريل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله تعالى إليهما: " ما هذا البكاء؟ قالوا: يارب! ما نأمن من مكرك. فقال تعالى: هكذا فكونا".

▲ 9- ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام

قال وهب: بكى آدم عليه السلام على الجنة ثلاثمائة عام، وما رفع رأسه إلى السماء بعد ما أصاب الخطيئة.

وقال وهيب بن الورد: لما عاتب الله تعالى نوحاً عليه السلام في ابنه فقال: [\[إني أعظك أن تكون من الجاهلين\]](#) [هود: 46] بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء.

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: كان يسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بعد خوفاً من الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة، خر لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه، ثم نادى يارب: قرح الجبين، وجمدت العين، وداود لم يرجع إليه فى خطيئته شىء، فنودي: أجائع أنت فتطعم؟ أم مريض فشفى؟ أم مظلوم فتنصر، فنحب نحياً هاج كل شىء نبت، فعند ذلك غفر له.

وقيل: كان داود عليه السلام يعود الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل.

وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً. وبكى يحيى بن زكريا عليهما السلام حتى بدت أضراسه، فاتخذت أمه قطعين من لبود فألصقتها بحديه.

▲ 10- ذكر خوف نبينا صلى الله عليه وآله وسلم

عن عائشة رضى الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قط مستجعماً ضاحكاً، حتى أرى لهواته (6) "

إنما كان يتسّم، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عرف ذلك فى جهه، فقلت: يارسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيت الكراهه فى وجهك! فقال: " يا عائشة: ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا" أخرجاه فى " الصحيحين".

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

▲ 11- ذكر خوف أصحابه رضى الله عنهم

روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذى أوردني الموارد. وقال: ياليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل. وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضى الله عنهم.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً. وأخذ يوماً تينة من الأرض فقال: ياليتنى كنت هذه التينة، ياليتنى لم أك شيئاً مذكوراً، ياليت أمي لم تلدني. وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء.

وقال عثمان رضى الله عنه: وددت أني إذا مت لا أبعث.

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه: وددت أني كنت كبشاً فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحسوا مرقى.

وقال عمران بن حصين: ياليتنى كنت رماداً تذروه الرياح. وقال حذيفة رضى الله عنه: وددت أن لى إنساناً يكون في مالي، ثم أغلق علىّ بابى، فلا يدخل على أحد حتى ألحق بالله عزّ وجل.

وكان مجرى الدمع في خد ابن عباس رضى الله عنه كالشراك البالي.

وقالت عائشة رضى الله عنها: ياليتنى كنت نسياً منسياً.

وقال على رضى الله عنه: والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فما أرى اليوم شيئاً يشبههم. لقد كانوا يصبحون شعناً غيراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله تعالى، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله عز وجل، مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

▲ 12- ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هرم بن حيان: وددت والله أنى شجرة أكلتني ناقة، ثم قذفتني بعراً، ولم أكأب الحساب يوم القيامة، إنى أخاف الداهية الكبرى.

وكان على بن الحسين إذا توضأ اصفرّ وتغير، فيقال: ما لك؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وكان محمد بن واسع يبكى عامة الليل لا يكاد يفتر.

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، ويبكى حتى تجري دموعه على لحيته. وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلب عنهم العبرة قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى، فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغشى عليه.

ولما أراد المنصور بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له: أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر. فقال: بات ليلة على سطح غرفتي هذه وهو من رخام، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب، فصعدت فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب.

وقد روينا عن عمر بن العزيز وفتح الموصلني أنهما بكيا الدم.

وقال إبراهيم بن عيسى البشكري: دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزال الناس، وتفرغ لنفسه، فذاكرته شيئاً من أمر الآخر، وذكر الموت. قال: فجعل يشهق حتى خرجت نفسه.

وقال مسمع: شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ، فمات يومئذ في ذلك المجلس أربعة أنفس.

وكان يزيد بن مرشد يبكى كثيراً ويقول: والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام، لكان حقي أن لا أفر من البكاء، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في النار إن عصيته؟!

وقال السري السقطى: إنى لأنظر كل يوم إلى أنفى مخافة أن يكون قد اسود وجهي.

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإنما أمانة لعلنا جهلنا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ.

قال بعض السلف: قلت لراهب: أوصني، فقال: إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفتريسه، أو يسهو فينهشنه، فهو مذعور فافعل. قلت: زدني. فقال: الظمان يجزيه من الماء أيسره. وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام، فهو حقيقة في حق المؤمن، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته، رآه مشحوناً بالسباع والهوام، كالغضب، والحقد، والحسد، والكبر، والعجب، والرياء، وغير ذلك، وكلهن ينهشه ويفترسه إن سها عنهن، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء ووضع في القبر، عاينها متمثلة حيات وعقارب يلدغنه، وإنما هي صفاته الحاضرة الآن، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام.

آخر كتاب الخوف.

كتاب الزهد والفقر

اعلم: أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبعضها أسباب كل طاعة، وقد سبق ذم الدنيا في ربيع المهلكات، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها، فإنه رأس المنجيات. ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك زهداً، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات، وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة. ونحن نذكر الفقر، والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وما يتعلق بهما في شطرين:

الشرط الأول من الكتاب في الفقر:

اعلم: أن الفقير إلى الشيء هو المحتاج إليه، وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الموجود، وذلك مستفاد من فضل الله تعالى. وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يحصر، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند فقرة:

الأولى: أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به، وهرب من أخذه بغضها له واحترازاً من شره وشغله، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً.

الحالة الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله، ولا يكرهه كراهه يتأذى بها، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذ به وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به. وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً.

الرابعة: أن يكون تركه للطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه، لو وجد سبيلاً إلى طلبه بالتعب لطلبه، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص.

الخامسة: أن يكون مضطراً إلى ما قصده من المال، كالجائع، والعارى الفاقد للمأكل والملبوس. ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً، كيفما كانت رغبته في الطلب ضعيفة أو قوية.

وأعلى هذه الخامسة: الحالة الأولى، وهى: الزهد، ووراءها حالة أخرى أعلى منها، وهى أن يستوي عنده وجود المال وعدمه، فإن وجده لم يفرح به، ولم يتأذ إن فقده، كما روينا عن عائشة رضى الله عنها أنها جاءها مال في غرارتين (1)، ففرقتة في يومها، فقالت لها جاريتها: أما استطعت أن تشتري لنا مما قسمت لحماً بدرهم نقطر عليه؟ فقالت: لو ذكريني لفعلت. فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى، لا في يد نفسه.

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى، لأنه غنى عن عند فقد المال وجوده جميعاً، ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يرغب في وجودها، ولا عدمها، فهو في غاية الكمال. قال أحمد بن أبي الحواري لأبى سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الزكاة التي أهديتها لى، فإن الشيطان يوسوس لى أن اللص قد أخذها، فقال أبو سليمان: هذا من ضعف الزهد، هو قد زهد في الدنيا ما عليه من أخذها. فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال، فأما في حق الأنبياء والأقوياء، فسواء عليهم وجوده وعدمه. وقد يظهر القوى النفار من المال ليقتدي به الضعفاء في الترك، والله أعلم.

▲ 1- فصل في فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله تعالى في معرض المدح فى حق الفقراء: { للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله } الآية [البقرة: 273]. وقال: { للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم }.. الآية [الحشر: 8]. وأما الأخبار فكثيرة، منها: قول صلى الله عليه وآله وسلم: " قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجد محبوسون " وذكر تمام الحديث. وهو في " الصحيحين ". وفيهما من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ". وفيهما من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض .

وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضى الله عنه قال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يظل اليوم يتلوي ما يجد دقلاً ((الدقل: أردأ التمر)) يملأ بطنه . وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : " يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام " وقال الترمذي : حديث صحيح . وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة رضى الله عنها : " إياك ومجالسة الأغنياء "

وقال : يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله عز وجل إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل فى الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالى ما زويت الدنيا عنك لهوانك على، ولكن لما أعددت لك من الكرامة. اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك أو كساك يريد بذلك وجهي، فخذ بيده فهو لك ". وقيل لموسى عليه السلام: إذا رأيت الفقر مقبلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته. وقال أبو الدرداء: حساب ذي الدرهمين اشد حساباً من ذي الدرهم. وكان الفقراء يتقدمون فى مجلس الثوري على الأغنياء. وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها، وقال: تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء!؟ لا أفعل. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً، وقنع بما آتاه عز وجل ". وقد ذكرنا فى القناعة وذم الحرص والطمع فى كتاب ذم المال ما يغنى عن الإعادة، ولا يقدر على ذلك

إلا بعد القوة الصبر. وأما التفضيل بين الغنى والفقير، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير، ولكن لابد من تفصيل، فنقول: إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غنى شاكر ينفق ماله في الخيرات، أو فقير حريص مع غنى حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع الحريص، فإن كان متمتعاً بالمال في المباحات، فالفقير القنوع أفضل منه. وكشف الغطاء في هذا أن ما يراد لغيره، ولا يرد لعينه، ينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، والفقير ليس مطلوباً لعينه، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى، وعدم التشاغل عنه. وكم من غنى لا يشغله عن الله تعالى، كسليمان عليه السلام، وكذلك عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما. وكم من فقير شغله فقره عن المقصود، وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به، وإنما الشاغل له حب الدنيا، وإذا لا يجتمع معه حب الله تعالى، فإن المحب للشيء مشغول به، سواء كان في فراقه، أو في وصاله، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر. والدنيا معشوقة الغافلين، فالمحرم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر، فالفقير عن الخطر أبعد، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا تجرد، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم، جاء الشرع بدم الغنى وفضل الفقير. وقد تقدم ما يدل على فضله.

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غنى، ومؤمن فقير، كانا في الدنيا، فأدخل الفقير الجنة، وحبس الغنى ما شاء الله تعالى أن يحبس، ثم أدخل الجنة، فلقبه الفقير، فقال: أي أخي: ماذا حبسك؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك، فقال: أي أخي حبست بعدك محبسا قطيعاً كريهاً، وما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض، لصدرت عنه رواء"

واعلم: أن فراق المحبوب شديد، فإذا أحببت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوباً كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به، فينبغي أن تحب من لا يفارقك، وهو الله تعالى، ولا تحب الدنيا التي تفارقك.

▲ 2- فصل في آداب الفقير في فقره

ينبغي له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر. وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً، ويكون متوكلاً على الله سبحانه، واثقاً به ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكو إلى الله تعالى، كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتحمل. قال الله تعالى: {يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف} [البقرة: 273]. وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته. وينبغي له أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بذلك ما فضل عنه، فإن ذلك جهد المقل. روى أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله: أي الصدقة أفضل؟ قال: "جهد من مقل إلى فقير في السر"

▲ 3- بيان آدابه في قبول العطاء

إذا جاءه بغير سؤال ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطى، وغرضه في الأخذ.

الأول: أما في نفس المال، فينبغي أن يكون خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه. وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، وما يجب اجتنابه،

وما يستحب. وأما غرض المعطى، فلا يخلو، إما أن يكون طلباً للمحبة، وهو الهدية، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة.

الثاني: أن يكون غرض المعطى الثواب، وهو الزكاة والصدقة، فعليه أن ينظر فى صفات نفسه، هل هو مستحق أم لا؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وإن كان صدقة، فكان المعطى إنما يعطيه لدينه، فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارناً لمعصية فى السر، يعلم أن المعطى لو علم بذلك، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقة عليه، لم يأخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم لم يكن.

الثالث: أن يكون غرض المعطى الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه، لأنه إذا قبله يكون معينا له على قصده الفاسد. وأما غرضه فى الأخذ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه؟ فإن كان مستغنياً لم يأخذه، وإن كان محتاجاً إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما روى عن عمر رضى الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذ، وما لا تتبعه نفسك " أخرجاه فى "الصحيحين". وفى حديث آخر: " من جاءه من أخيه معروف من غير إسراف ولا مسألة، فليقبله ولا يرده، فإنما هو رزق ساقه الله إليه".

▲ 4- فصل فى بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وأداب الفقير المضطر فى السؤال

اعلم: أنه قد ورد فى السؤال أحاديث فى النهى عنه، وفى الترخيص فيه.

أما الترخيص: فكقوله صلى الله عليه وآله وسلم: " للسائل حق وإن جاء على فرس " وفى بعض الأحاديث: "ردوا السائل ولو بظلف محرق". ولو كان السؤال حراماً، لما جاز إعانة المعتدى على عدوانه، والإعطاء إعانة. وأما أحاديث النهى عن السؤال: فروى ابن عمر رضى الله عنهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله عز وجل وليس فى وجهه مزعة لحم " أخرجاه فى "الصحيحين". وفيهما أيضاً: أنه صلى الله عليه وآله وسلم ذكر التعفف عن المسألة فقال: "اليد العليا خير من اليد السفلي". واليد العليا المعطية، والسفلي السائلة. وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه: أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: " من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً فى وجهه " إلى آخره. وهو حديث حسن، وفى المعنى أحاديث كثيرة. وكشف الغطاء فى هذا أن نقول: السؤال فى الأصل حرام، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور:

أحدها: الشكوى.

والثاني: إذلال نفسه، وما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه.

والثالث: إيذاء المسؤول غالباً. وإنما يباح السؤال فى حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة، أما المضطر، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً، وكسؤال العاري الذي ليس له ما يواريه. وأما المحتاج حاجة مهمة فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها فى الشتاء، فهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي إلى حد الضرورة، فكذلك من يقدر على المشي لكن بمشقة، يجوز له أن يسأل أجرة يكثرى بها للركوب، وتبركه أولى، ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم، فله أن يسأل مع الكراهة، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الراحة. وينبغى فى مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله تعالى، ولا يسأل سؤال محتاج، بل يقول: أنا مستغن بما أملكه، وإنما النفس تطالبني، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى. وينبغى أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك

فى عینه، أو السخى الذى أعد ماله للمكارم، فىخرج بذلك من الذل. وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياءً، لم یجز له الأخذ، ویجب رده إلى صاحبه. ولا یجوز للفقیر أن یسأل إلا مقدار ما یتحتاج إلیه، من بیت یکنه، وثوب یستره، وطعام یقیمه. وبراعى فى هذه الأشياء ما یدفع الزمان من غیر تنوق (2) فى شئ من ذلك، فإن كان یعلم أنه یجد من یسأله كل یوم، لم یجز أن یسأل أكثر من قوت یومه ولیلته، وإن خاف أن لا یجد من یعطیه، أو خاف أن یعجز عن السؤال، أبیح له السؤال أكثر من ذلك. ولا یجوز له فى الجملة أن یسأل فوق ما یکفیه لسنته، وعلى هذا یتنزل الحدیث المروى فى تقدیر الغنى بخمسين درهماً، فإنها تكفى المنفرد المقتصد لسنة، فأما ذو العائلة فلا.

▲ 5- بیان أحوال السائلین .

كان بشر الحافی یقول : الفقراء ثلاثة: فقیر لا یسأل، وإن أعطى لا یأخذ، فهذا من الروحانیین. وفقیر لا یسأل، إن أعطى أخذ، فذاك من أهل حظيرة القدس. وفقیر إذا احتاج سأل، فكفارة مسألته صدقه فى السؤال. قال الشیخ جمال الدین رحمه الله: قلت: وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقیر على دفع الزمان من غیر سؤال، لم یجز له أن یسأل، فإن كان یندفع على مضض، نظرت، فإن كان مثله لا یحتمل، ولا یخاف منه التلف، فالسؤال مباح وترکه فضیلة، وإن كان مثله لا یحتمل، وجب علیه أن یسأل. قال سفیان الثوری رحمه الله: من جاع فلم یسأل حتى مات دخل النار.

▲ الشطر الثانى من الكتاب:

6- بیان حقیقة الزهد وفضیلته وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

اعلم: أن الزهد فى الدنیا مقام شریف من مقامات السالکین، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ إلى ما هو خیر منه، وشرط المرغوب عنه أن یكون مرغوباً فیهِ بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شئ لیس مرغوباً فیهِ ولا مطلوباً فی نفسه، لم یسم زاهداً، كمن ترك التراب لا یسمى زاهداً. وقد جرت العادة بتخصیص اسم الزاهد بمن ترك الدنیا، ومن زهد فى كل شئ سوي الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد فى الدنیا مع رغبته فى الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول. واعلم: أنه لیس من الزهد ترك المال، وبذله على سبیل السخاء والقوة، واستمالة القلوب، وإنما الزهد أن یترك الدنیا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة. ومن عرف أن الدنیا كالثلج یذوب، والآخرة كالدر یبقى، قویت رغبته فى بیع هذه بهذه. وقد دل على ذلك قوله تعالى: [\[قل متاع الدنیا قلیل والآخرة خیر لمن اتقى\]](#) [النساء : 77] وقوله: [\[ما عندكم ینفد وما عند الله باق\]](#) [النحل : 69]. ومن فضیلة الزهد قوله تعالى: [\[ولا تمدن عینک إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحیاة الدنیا لنفتنهم فیهِ\]](#) [طه : 131]. وقال النبی صلی الله علیه وآله وسلم : " من أصبح وهمه الدنیا، شتت الله علیه أمره، وفرق علیه ضیعتة، وجعل فقره بین عینیهِ، ولم یأت من الدنیا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ علیه ضیعتة، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنیا وهو راغمة". وقال الحسن : یحشر الناس عراة ما خلا أهل الزهد، وقال : إن أقواماً أكرموا الدنیا فصلبتهم على الخشب، فأهینوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها. وقال الفضیل: جعل الشر كله فى بیت، وجعل مفتاحه حب الدنیا، وجعل الخیر كله فى بیت، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنیا. وكان بعض السلف یقول: الزهد فى الدنیا یریح القلب والبدن، والرغبة فیها تكثر الهم والحزن.

▲ 7- فصل فى درجات الزهد وأقسامه

من الناس من یزهد فى الدنیا وهو لها مشتهٍ، لكنه یجاهد نفسه، وهذا یسمى: المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

الدرجة الثانية: أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يعجب بنفسه، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، كما يترك درهما لأخذ درهمين، وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهى العليا أن يزهد طوعاً ، ويزهد في زهده، فلا يرى أنه ترك شيئاً، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشئ، فيكون كمن ترك خرقة، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أحسن من خرقة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد.

واعلم: أن مثل من ترك الدنيا، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فقرب من الملك، أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟

فالشيطان كلب في باب الله عز وجل، ويمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة، فمن تركها لينال عز الملك، فكيف يلتفت إليها؟ ثم إن نسبتها ، أعنى ما سلم لكل شخص منها ولو عمر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أقل من لقمة بالإضافة إلي ملك الدنيا، لأن الفاني لا نسبة له إلى الباقي، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدره؟

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه، فعلى ثلاث درجات:

أحدها: الزهد للنجاة من العذاب، والحساب، والأهوال التي بين يدي الآدمي، وهذا زهد الخائفين.

الدرجة الثانية: الزهد للرجبة في الثواب ، والنعيم الموعود به، وهذا زاهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهى العليا. وه أن لا يزهد في الدنيا للتخلص نم الآلام، ولا للرجبة في نيل اللذات، بل لطلب لقاء الله تعالى وهذا زهد المحسنين العارفين، فإن لذة النظر إلى الله سبحانه وتعالى بالإضافة إلى لذات الجنة، كلذة ملك الدنيا، والاستيلاء عليها، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به.

▲ 8- فصل في بيان تفصيل فيما هو من ضروريات الحياة

والضروريات المهمات سبعة أشياء: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه.

فأما الأول: وهو المطعم فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ. وفى الحديث: " إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين". وقالت عائشة رضى الله عنها لعروة : كان يمر بنا هلال، وهلال، ما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نار. قال: قلت: يا خالة: فعلى أي شئ كنتم تعيشون؟ قالت : على الأسودين: الماء والتمر. والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة. وقد كان كثير من الزهاد يخشون المطعم، وكان فيهم من لا يطيق ذلك ، فكان الثوري حسن المطعم، وربما حمل في سفرته اللحم المشوي والفالودج. وفى الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه، ولا يزيد في التنعم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحمل التخشن. وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال بتقوته، فلا يخرج ذلك من الزهد، فقد كان السبتي يعمل من السبت إلى السبت وبتقوته. وورث داود الطائى عشرين ديناراً، فأنفقها في عشرين سنة.

الثاني: الملبس، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد، ويستتر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل، لئلا يخرج التقي إلى الشهرة. وكان أكثر لباس السلف خشناً، فصار لبس الخشن شهرة. وقد روى عن أبي بردة قال: **أخرجت إلينا عائشة رضى الله عنها كساءً ملبداً، وإزاراً غليظاً، وقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذين. أخرجه في "الصحيحين"**

وعن الحسن قال: **خطب عمر رضى الله عنه وهو خليفة، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة.**

الثالث: المسكن، فللزاهد فيه ثلاث درجات.

أعلاها: أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصفة، وأوسطها: أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، مثل كوخ في سعة، أو خص وما أشبه ذلك. وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية. ومتى طلب السعة وعلو السقف، فقد جاوز حد الزهد في المسكن. وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يضع لبنة على لبنة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نلت السقف. وفي الحديث: **"إن المسلم ليؤجر في كل شئ ينفقه إلا في شئ يجعله في هذا التراب"**. وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: **إذا كان البنيان كفافاً، فلا أجر ولا وزر.**

وفى الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد.

الرابع: أثاث البيت، فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف، ويستعمل الإناء الواحد في مقاصده، فيأكل في القصعة، ويشرب فيها، ومن خرج إلى كثرة العدد في الآلة، أو في نفاسة الجنس، خرج عن الزهد. ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. **ففى "صحيح مسلم" من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثر على جنبه، فنظرت في خزانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع. وفى رواية البخاري: فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر. والحديث مشهور في "صحيح مسلم" وقال على رضى الله عنه: تزوجت فاطمة وما لى ولها فراش إلا جلد كبش، كنا ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، ومالي خادم غيرها، ولقد كانت تعجن، وإن قصتها (3) لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها. ودخل رجل على أبي ذر رضى الله عنه، فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر؟ ما أرى في بيتك متاعاً، ولا أثاثاً. فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت هاهنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.**

الخامس: المنكح، لا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرتة.

قال سهل بن عبد الله: **حبب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النساء. وكان على رضى الله عنه من أزهد الصحابة، وكان له أربعة نسوة، وبضع عشرة سرية.**

وكان أبو سليمان الداراني يقول: **كل ما شغلك عن الله، من أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم.**

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول: من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه، تعين عليه النكاح، فأما من لا يخاف، فهل النكاح في حقه أفضل أو التبعيد؟ فيه اختلاف بين العلماء. والناس مختلفون فيه منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة، فلا يقدر ذلك في دينه، ولا يتشتت قلبه، بل يجمع النكاح همه، ويكف بصره، ويرد فكره،

فهذا غاية في الفضيلة، وعليه يحمل حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وحال على رضى الله عنه ،ومن جرى مجراهما، ولا التفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود.وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل، والنفقة عليها أقل، والاهتمام بأمرها يسير، بخلاف المستحسنة، فإنها تشتت القلب، وتشغله، وتريد زيادة في النفقة، وربما لم يكن.وقد قال مالك بن دينار، يعمد أحدهم فيتزوج دياجة الحي فتقول: أريد مرطاً (4) فتمرط دينه.

السادس: المال: وهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يتشأغل بالتجارة ويقصد بها العفاف.وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين، قام.وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت، وخلف أربعمئة دينار، وقال: إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني.

السابع: الجاه، ولا بد للإنسان من جاه حتى في قلب خادمه، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلب، فينبغي أن يتحرز من شر ذلك.وفى الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا.

▲ 9- فصل في بيان علامات الزهد

وقد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن ترك المال، وإظهار التخشن، سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من راهب قد لازم الدير، وقلل المطعم، وقواه على ذلك حسب المحمدة، كما سبق ذكره في كتاب الرياء.

ولا بد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعاً، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس، فأول معرفة الزهد مشكل.وقد قال ابن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد، وينبغي أن يعول في هذا على ثلاث علامات

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن بمفقود، كما قال تعالى [{لكنلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم}](#) [الحديد: 23] وهذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه.

الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فهما في القلب كالماء والهواء في القدر، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان. قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى الأنس بالله.قال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ماشطتها و(5) الزاهد يسخم (6) وجهها، وينتف شعرها، وبخرق ثوبها، والعارف مشغل بالله تعالى عنها.فهذا الإمام أردنا ذكره من حقيقة الزهد وحكامه.

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

ثلاثون كتاب التوحيد والتوكل

▲ بيان فضيلة التوكل

قال الله تعالى: [{وعلى الله فليتوكل المؤمنون}](#) [آل عمران: 122] . وقال: [{ومن يتوكل على الله فهو حسبه}](#) [الطلاق:3].

وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قال: "هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون". أخرجاه في "الصحيحين". وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وآله وسلم يقول: "لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاصاً وتروح بطاناً". وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم إني أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال، وصدق التوكل عليك، وحسن الظن بك" (1) والتوكل يبتنى على التوحيد، والتوحيد طبقات: منها أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فيصدق بهذا اللفظ، لكن من غير معرفة دليل، فهو اعتقاد العامة.

الثانية: أن يرى الأشياء المختلفة، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقربين.

الثالثة: أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله، لم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه في الحقيقة هو الفاعل وحده، فسبحانه والكل مسخرون له، فلا يعتمد على المطر في خروج الزرع، ولا على الغيم في نزول المطر، ولا على الريح في سير السفينة، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور. ومن انكشفت له الحقائق، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها، ولا بد لها من محرك. فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتضرب عنقه، فوقع له الملك بالعفو عنه، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي كتب به التوقيع، ويقول: لولا هذا القلم ما تخلصت، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم، وهذا غاية الجهل. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه، شكر الكاتب دون القلم، وكل المخلوقات في قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم في يد الكاتب، فسبحان مسبب الأسباب الفعال لما يريد.

▲ 1- فصل في بيان أحوال التوكل وأعماله وحده ونحو ذلك

اعلم: أن التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلى فلان، أي فوض أمره إليه، واعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة، والقوة، والهداية. فإذا عرفت هذا، فقس عليه التوكل على الله سبحانه، وإذا ثبت في نفسك أنك لا فاعل سواه واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين: إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال: وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج بقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين، فإنه من كان يتناول عسلاً، فشبه بين يديه بالعدرة، ربما نفر طبعه منه، وتعذر عليه تناوله. ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً في الحال، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان منه، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب، وقوى اليقين جميعاً، فإذا انكشف لك معنى التوكل، وعلمت الحالة التي تسمى توكلًا، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى الثقة بكفالتة وعنايته، كحاله فى الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهى أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه، وأول سابق إلى لسانه : يا أماه. فمن كان تأله إلى الله، ونظره إليه، واعتماده عليه، كلف به كما يكلف الصبي بأمه، فيكون متوكلاً حقاً. والفرق بين هذا وبين الأول، أن هذا متوكل قد فني فى توكله عن توكله، إذا لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه، ولا مجال فى قلبه لغيره.

وأما الأول ، فهو متوكل بالتكليف والكسب، وليس فانيا عن توكله، بل له التفات إليه ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده.

الدرجة الثالثة: وهى أعلى منهما، أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتاً، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها. وهذه الأحوال توجد فى الخلق، إلا أن الدوام يبعد، ولاسيما المقام الثالث.

▲ 2. فصل فى بيان أعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة، وكلحم على وضم (2)، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام فى الشرع. والشرع قد أثنى على المتوكلين، وإنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه إلى مقاصده، وسعى العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب، أو حفظ موجود كالادخار ، وإما لدفع ضرر لم ينزل، كدفع الصائل، أو لإزالة ضرر قد نزل، كالتداوى من المرض، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة.

الفن الأول: فى جلب المنافع ، فنقول: الأسباب التي بها تجلب المنافع على ثلاث درجات

أحدها : سبب مقطوع به كالأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف، مثاله، أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع، فلا تمد يدك إليه وتقول: أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي، ومد اليد إلى الطعام سعي، وكذلك مضغه وابتلاعه، فهذا جنون محض، وليس من التوكل فى شئ، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شيئاً دون أكل الطعام، أو يخلق فى الطعام حركة إليك، أو يسخر ملكاً ليمضغه وبوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله. وكذلك لو لم تزرع، وطمعت أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر، أو تلد الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنون، وليس التوكل فى هذا المقام ترك العمل، بل التوكل فيه بالعلم والحال. أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة، وأنه الذي يطعمك ويسقيك. وأما الحال، فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى، لا على اليد والطعام، لأنه ربما جفت يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام، فمد اليد إلى الطعام لا ينافى التوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها. مثاله من يفارق الأمصار، ويخرج مسافراً إلى البوادي التي لا يطررها الناس إلا نادراً، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد، فهذا كالمجرب على الله تعالى، وفعله منهي عنه، وحمله للزاد مأمور به، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سافر تزود واستأجر دليلاً إلى المدينة.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع، لم يخرج عن التوكل، لكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش. وترك التكسب ليس من التوكل في شيء، إنما هو من فعل البطالين الذين أثروا الراحة، وتعللوا بالتوكل. قال عمر رضى الله عنه : المتوكل الذي يلقى حبه في الأرض ويتوكل على الله.

الفن الثاني:

في التعرض للأسباب بالادخار، ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع همه، فادخاره إياه لا يخرج عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة. وفي "الصحيحين" من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يبيع نخل بني النضير، ويحيس لأهله قوت سنتهم. فإن قيل: فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلالاً أن يدخر، فالجواب: أن الفقراء كانوا عنده كالضيف، فما كان ينبغي أن يدخر فيجوعون ، بل الجواب : أن حال بلال وأمثاله من أهل الصفة كان مقتضاها عدم الادخار، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب في دعوى الحال لا على الادخار الحلال.

الفن الثالث: مباشرة الأسباب الدافعة للضرر. ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر، فلا يجوز النوم في الأرض المسببة (3) أو مجرى السيل، أو تحت الجدار الخراب، فكل ذلك منهي عنه. وكذلك لا ينقض التوكل لبس الدرع، وإغلاق الباب، وشد البعير بالعقال. وقال الله تعالى { **ولياخذوا أسلحتهم** } [النساء : 102]. وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : **يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: "أعقلها وتوكل"**. ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب، ويكون راضياً بكل ما يقضى الله عليه ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو احترز لم يسرق، أو أخذ يشكو ما جرى عليه ، فقد بان بعده عن التوكل. وليعلم أن القدر له كالطبيب ، فإن قدم إليه الطعام فرح، وقال : لولا أنه علم أن الغذاء ينفعني ما قدمه، وإن منعه فرح، وقال : لولا أنه علم أن الغذاء يؤذيني لما منعه. واعلم: أن كل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقد المريض في الطبيب الحاذق الشفيق، لم يصح توكله، فإن سرق متاعه رضى بالقضاء، وأحل الأخذ، شفقة على المسلمين. فقد شكوا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق، وأخذ ماله،

فقال: إن لم يكن غمك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك، فما نصحت المسلمين.

الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر، كمداداة المريض ونحو ذلك.

اعلم: أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

إلى مقطوع به ، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

القسم الثاني: أن يكون مظنوناً، كالفصد، والحجامة، وشرب المسهل، ونحو ذلك. فهذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تداوى وأمر بالتداوى. وقد تداوى خلق كثير من المسلمين ، وامتنع عنه أقوام توكلوا، كما روى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أنه قيل له : ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: رأني الطبيب. قيل: فما قال لك ؟ قال: إني فعال لما أريد. قال المصنف رحمه الله : والذي نصره أن التداوى أفضل،

وتحمل حال أبي بكر رضى الله عنه أنه قد تداوى ثم أمسك بعد انتفاعه بالدواء، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات. واعلم: أن الأدوية أسباب مسخرة بإذن الله تعالى.

القسم الثالث: أن يكون السبب موهوماً، كالكي، فيخرج عن التوكل، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصف المتوكلين بأنه لا يكتوون. وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور فى قوله: " لا يكتوون " على ما كانوا يفعلونه فى الجاهلية، فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون فى زمن العافية لئلا يمرضوا، فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يرقى الرقية بعد نزول المرض، وقد كوى أسعد بن زرارة رضى الله عنه . وأما شكوى المريض، فهي مخرجة عن التوكل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض، لأنه يترجم عن الشكوى، فكان الفضيل يقول: أشتهي مرضاً بلا عواد. وقال رجل للإمام أحمد: كيف أنت ؟ قال : بخير. قال حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا بخير، فلا تخرجني إلى ما أكره. فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده، فإنه لا يضره. وقد كان بعض السلف يفعل ذلك، ويقول: إنما أصف قدرة الله في ، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الصراء ويرى ذلك نعمة، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكراً لها، ولا يكون ذلك شكوى. وقد روينا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " إني أوعك كما يوعك رجلان منكم ."

واحد وثلاثون كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى

اعلم : أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضى، ولا قبل المحبة، مقام إلا وهو من مقدماتها، كالطوبة، والصبر، والزهد وغيرها. واعلم: أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالى: " [يحبهم ويحبونه](#) { المائدة:54 } وقوله تعالى: [{والذين آمنوا أشد حبا لله}](#) [البقرة : 165] وهذا دليل على إثبات الحب لله، وإثبات التفاوت فيه. وفى الحديث الصحيح: [أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الساعة فقال: " ما أعددت لها؟ " قال: يا رسول الله : ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " المرء مع من أحب ، وأنت مع من أحببت "، فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها. وروى أن ملك الموت جاء إلى الخليل عليه السلام ليقبض روحه ، فقال له : هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله إليه : هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت اقبض. وقال الحسن البصري رحمه الله: من عرف ربه أحبه، ومن أحب غير الله تعالى، لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله](#)

وقصوره عن معرفته، فأما حب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب، ورسول الله المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، ولا محبوب فى الحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه.

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب:

أحدها : أن الإنسان يحب نفسه، وبقائه، وكماله، ودوام وجوده، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان، وهذا جبلة كل حي لا يتصور أن ينفك عنها. وهذا يقتضى غاية المحبة لله عز وجل، فإن الإنسان إذا عرف ربه، عرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله ، وأنه المخترع له، الموجد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل ولذلك قال الحسن البصري: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا، زهد فيها.

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه.

السبب الثاني : أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواسه، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ، وأعانه على جميع أغراضه، فإنه محبوب عنده لا محالة.

وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالى فقط. وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر، كما قال تعالى { [وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها](#) } [إبراهيم : 34 والنحل : 18]

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك فى كتاب الشكر، ولكننا نبين أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز، وأن ، المحسن فى الحقيقة هو الله تعالى.

بيان ذلك أنا نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك، وممكنك فيها لتتصرف كيف شئت، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط، فإنه إنما تم إحسانه بماله ، ويقدرته على المال ، وبداعيته الباعثة له على صرف المال . فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته؟ ومن الذي حبيك إليه، وصرف وجهه إليك وألقى فى نفسه أن صلاح دينه وديناه فى الإحسان إليك، ولولا ذلك ما أعطاك، فكانه صار مقهوراً فى التسليم لا يستطيع مخالفته. فالمحسن هو الذي اضطره وسخره لك، فهو جار مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خلة خلعا عليها عليه الأمير، فإن الخازن لا يرى محسناً بتسليم خلة الأمير، لأنه مضطر إلى طاعته، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك . وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه، لم يبذل حبه من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعي، ويلقى فى نفسه أن حظه فى بذل ذلك فيبذله. فينبغي للعارف أن لا يحب إلا الله ، إذا الإحسان من غيره محال.

السبب الثالث: أن المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب فى الطباع، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عايد رفيق بالناس، متلطف بهم وهو فى قطر بعيد، فإنك تحبه، وتجد فى نفسك ميلاً كثيراً إليه. فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك. وهذا ما يقتضى حب الله تعالى، بل يقتضى أن لا يحب غيره، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل كافة، بإجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيهم، إلى غير ذلك من النعم التي لا تحصى ، كما قال تعالى: { [وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها](#) } [إبراهيم : 34 والنحل : 18]. فكيف يكون غيره محسناً؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله تعالى.

وكذلك نقول : كل من كان متصفاً بالعلم، أو بالقدرة أو كان متنزهاً عن الصفات الرذيلة، فإن ذلك يوجب له المحبة. فصفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً، ترجع إلى علمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسوله وشرائع أنبيائه، إلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم والى تنزيهم عن الرذائل والخبائث ولمثل هذه الصفات تحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله تعالى، وجدتها مضمحلة بالنسبة إلى صفاته سبحانه وتعالى.

أما العلم ، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض . وقد خاطب الخلق كلهم فقال: { [وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً](#) } [الإسراء: 85].

ولو أجمع أهل السموات والأرض، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة، لم يطلعوا على عشر عشر ذلك، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، والقدر اليسير

الذي علمه الخلق كلهم، بتعليمه، علموه. ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية، إذ معلوماته لا نهاية لها.

وأما صفة القدرة، فهي أيضاً صفة كمال، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، وجدت أعظم الأشخاص قوة، وأوسعهم ملكاً، وأقواهم بطشاً، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه، وعلى بعض امتحان الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى، ولا على حفظ لسانه من الخرس، ولا آذانه من الصمم، ولا بدنه من المرض، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره، فليست قدرته من نفسه، بل الله خالق وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه.

قال الله تعالى في حق أعظم ملوك الأرض ذي القرنين: **{إنا مكنا له فى الأرض}** [الكهف: 84] فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالى، فنواصي الخلق جميعهم فى قبضته وقدرته، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقهم، فلا قادر إلا هو، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء. فإن تصور أن تحب قادراً لكمال قدرته وعظمته وعلمه، فلا يستحق ذلك سواه، ولا يتصور كمال التقديس والتنزيه إلا له سبحانه، فهو الواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد الذي لا منازع له، الغنى الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، وبحكم ما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، العالم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

1- فصل في بيان أن أجل اللذات وأعلىها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر

على ذلك لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم: أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة غريزة لذة، ولم تخلق هذه الغرائز عبثاً، بل لأمر من الأمور، وهو مقتضاها بالطبع، فغريزة شهور الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، ولذة البصر والسمع فى الإبصار والإسماع.

وكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهي، وقد تسمى العقل، وتسمى البصيرة الباطنة، وتسمى نور الإيمان واليقين، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبيعتها، فمقتضى طبيعتها العلم والمعرفة، وذاك لذتها. وليس يخفى أن العلم والمعرفة، ولو فى شئ خسيس يفرح به، وأن من ينسب إلى الجهل ولو فى شئ خسيس يغتم به. وكل ذلك لفرط لذة العلم، وما يستشعره من كمال ذاته. فان العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثنى عليه بالذكاء، وغزارة العلم، ثم ليس لذة العلم بالحرارة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتديير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالشعر والنحو، كلذة العلم بالله تعالى وملائكته وملكوت السموات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فبهذا استبان أن أذ المعارف وأشرفها، وأشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به أذ العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعري، هل فى الوجود شئ أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها. ومزينها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟ وهل يتصور أن يكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين ؟

فينبغي أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس، فإن المعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة. فلو خير الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج، وبين لذى الرياسة، وقهر الأعداء، ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمية اختار اللحم والحلواء، وإن كان علي الهمة، كامل العقل، فإنه يختار الرياسة، ويهون عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أياماً.

فاختياره للرياسة دليل على أنه أذ عنده من المطعومات الطيبة، وكما أن لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة، فلذة معرفة الله سبحانه وتعالى والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية أذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر، وينغمس فى بحار المعرفة، ويترك الرياسة، ويحتقر الخلق، لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكون ذلك مشوباً بالكدر، مقطوعاً بالموت. وتعظم عنده معرفة الله سبحانه وتعالى، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته، فإنها خالية عن الزاحمات والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم ، فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع فى رياضتها، ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها، وهو آمن من انقطاعها، إذ هي أبدية سرمدية، لا يقطعها الموت، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى، إذ محلها الروح، وإنما الموت يغير أحوالها، أما أن يعدمها فلا.

والعارفون درجات عند الله تعالى متفاوتون، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق، والحكاية فيها قليلة الجدوى. فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله تعالى أذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : إن لله عبادةً ليس يشغلهم عن الله عز وجل خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله تعالى ؟

وقال بعض أصحاب معروف: قلت له: أي شئ أهاجك على العبادة؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأي شئ الموت؟ قلت: ذكر القبر. فقال وأي شئ القبر؟ قلت: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأي شئ هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده، إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع ذلك.

وقال أحمد بن الفتح : رأيت بشر بن الحارث فى منامى، فقلت له: ما فعل معروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هيهات ، حالت بيننا وبينه الحجب، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره، وإنما عبده شوقاً إليه، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى ، ورفع الحجب بينه وبينه.

فمتى حصلت محبة الله تعالى لشخص، صار قلبه مستغرقاً بها، ولا يلتفت إلى جنة ، ولا يخاف من نار، فإنه قد بلغ النعيم الذي ليس فوقه نعيم. قال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وإنما أراد بهذا لذة القلب فى معرفة الله تعالى . وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، وأما القلب فلذته فى لقاء الله تعالى فقط.

واعلم : أن لذة النظر فى الآخرة تزيد على المعرفة فى الدنيا، وقد اقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات وما يغلب عليها من الصفات البشرية، ولا تنتهي إلى المشاهدة، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار. والقول فى سبب كونه حجاباً يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار، تجلى لهم الحق سبحانه وتعالى على قدر معرفتهم فى الدنيا.

فكل من لا يعرف الله تعالى فى الدنيا، لا يراه فى الآخرة. وما يستأنف لأحد فى الآخرة مالم يصحبه فى الدنيا، ولا يحصد أحد ما زرع، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء، فتضاعف اللذة، والعيش عيش الآخرة . { [وان الدار الآخرة لهى الحيوان](#) } [العنكبوت : 64]

وعيش الآخرة بقدر المعرفة، ولهذا جاء فى الحديث: “خير الناس من طال عمره وحسن عمله” وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر، والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا، والتجرد للطلب، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية ولذتها، ومعنى كونها أذ من سائر اللذات عند أهل الكمال.

2- فصل فى بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس فى الحب وبيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

واعلم : أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً فى الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناه القدوم على الله تعالى، ودرک سعادة لقاءه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة.

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن ، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما : قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فأحد أسباب ضعف حبه، قوه حب الدنيا ، ويقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنسه بالله، والدنيا والآخرة ضربتان، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمam الخوف والرخاء، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك.

السبب الثاني لقوة المحبة: معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعثها المحبة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي، والذكر الدائم، والتشمير فى الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه : وأقل أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات .

والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هي مركوزة فيه وهى فى السماء الرابعة ((لم يثبت فى هذا خبر تصح نسبته إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنما ضرب من الاجتهاد الإنساني الذي يخضع للمقاييس العلمية

الدقيقة، ويحكم عليها بموجبها من صواب أو خطأ)) والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السموات ، ثم السموات السبع فى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة، والكرسى فى العرش كذلك.

ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب هو جزء من الارض، وإلى سائر الحيوانات، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، واصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض، فانظر فيه بعقل حاضر، كيف خلقه الله عز وجل على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، وزاده الجناحين، وانظر كيف شق سمعه وبصره، وخلق فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته، ودبره فى سائر أحواله، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة، وانظر كيف خلق له الطيران، يطير إذا طلب ، وجعل له خرطوماً محمداً يمص به الدم.

وانظر إلى النحل فى تناولها الأزهار من الأنوار ، واحترازها عن الأقدار، وطاعتها إلى كبيرها، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذراً، وإلى اختيارها الشكل المسدس، فلا تبنى بيتاً مربعاً، ولا مستديراً، ولا خماسياً، بل مسدساً لخاصيته فى الشكل المسدس، فإن أوسع الأشكال وأحوالها المستدير وما يقرب منه، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراسة، فلا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه ، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلى المسدس، فانظر كيف الهمة الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه، فاعتبر بهذه اللمة اليسيرة من محقرات الحيوانات، فالنظر فى هذا وأشباهه تزداد المعرفة به، فتزداد المحبة.

وأما السبب فى تفاوت الناس فى الحب.

فاعلم أن الناس مشتركون فى أصل الحب، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله، فتزداد عظمة الله فى قلبه، فيزداد حباً له، وتجر هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحر لا ساحل له.

وأما السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى، فاعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه، وعلى علمه وحياته وقدرته ودلالته جلية ظاهرة، وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشيء من الحواس الخمس. فوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدن ونبات وحيوان وأرض وسمااء وكوكب وبر وبحر ، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا، وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا.

وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحكمته وعظمته وجلاله، إذ كل ذرة تنادى بلسان حالها: إنه ليس وجودها بنفسها، وإنما تحتاج إلى موجد لها، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلهية، كالحفاش بالنسبة إلى النهار، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، وليس عدم إبصاره بالنهار لخفائه، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الحفاش، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلهية، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى به عن البصائر والأبصار، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله سبحانه وتعالى، وانضم إلى ذلك أيضاً أن المدركات الشاهدة لله تعالى، إنما يدركها الإنسان فى حال الصبا قبل حضور العقل عنده، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً، وهو مستغرق الهم، مشغول به، وقد أنس بمدركاته وألفها، فسقط وقعها عن

قلبه يطول الأنس. وكذلك إذا رأى فجأة حيواناً غريباً، أو نباتاً ، أو فعلاً من أفعال الله تعالى عجباً خارقاً للعادة، انطلق لسانه بالتعجب، فقال: سبحان الله ! سبحان الله! وهو يرى طول النهار نفسه، وجميع أعضائه، وجميع الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها.

ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلاً، ثم انقشعت غشاوة عينه، فامتد بصره إلى السماء والأرض، والأشجار، والنبات، والحيوان دفعة واحدة، لخيف على عقله أن ينبهر، لعظم عجبه من مشاهدة هذه العجائب، وشهادتها لخالقها، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات، وهو الذي سد على الخلق في سبيل الاستضاءة بنور المعرفة، والسباحة في بحارها الواسعة، والله أعلم وأحكم.

▲ 3- فصل في بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

قد تقدم الكلام في المحبة وإثباتها بالأدلة، وأن الشوق ثمرة من ثمارها، فإن أحب شيئاً اشتاق إليه.

واعلم: أن الشوق لا يتصور إلا لشيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه.

فأما ما لا يدرك أصلاً، فلا يشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرؤية، وإنما يكون ذلك في الآخرة.

واعلم: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها، ويبقى أمور لا نهاية لها، والعارف يعلم وجودها، وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال العبد متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة، وينتهي الشوق الأول في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا.

وكان إبراهيم ابن أدهم من المشتاقين، فقال يوماً يارب ! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني، فقد أضربى القلب. قال : فرأيتك عز وجل في النوم، فقال : يا إبراهيم ! أما استحييت مني؟! تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه؟ فقلت : يا رب : تهت في حبك فلم أدر ما أقول، فهذا الشوق يسكن في الآخرة. وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له ، فلا يتضح للعبد ولا يحط به ، فهو مشغول بلذة ما ظهر له، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين حتى يشغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه.

ومن شواهد الأخبار، ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علم رجلاً دعاء، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم ، فذكر فيه: "أسألك اللهم الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك".

وفى التوراة : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً.

وفى بعض ما أوحى الله عز وجل إلى بعض عباده: إن لى عباداً من عبادى، يحبونى وأحبهم، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلى، ويذكرونى وأذكرهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك. قال : يا رب! وما علامتهم؟ قال : يرعون الظلال بالنهار ، كما يراعى الراعى الشفيق غنمه؟ ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها

عند الغروب، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وفرش الفرش، وخلال كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم، وافترشوا وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوني بإنعامي، فبين صارخ وبكاء، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلى، وبسمعي ما يشكون من حبي.

4. فصل في بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها وبيان علامات محبة العبد لله تعالى

وأما محبة الله تعالى للعبد، فاعلم:

أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك كقوله تعالى: { إن الله يحب التواضع ويحب المتطهرين } [البقرة 222]، { إن الله يحب الذي يقاتلون في سبيله صفاً }، الآية [الصف: 4] ونبه على أنه لا يعذب من يحبه، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: { قل فلم يعذبكم بذنوبكم } [المائدة: 18] وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال: { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم } [آل عمران]، وفي الحديث الصحيح، من رواية أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله تعالى يقول: " ما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه "، إلى آخره. وهو حديث مشهور.

ومن علامة حب الله تعالى للعبد، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه " ((قطعة من حديث أخرجه الترمذى (2398) من حديث أنس بلفظ "إن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى، فله الرضى، ومن سخط فله السخط" وفي الباب عن عبد الله بن مغفل عند الطبرانى والحاكم، وعن عمار بن ياسر عند الطبرانى، وعن أبي هريرة عند ابن عدى، فهو صحيح بها)).

ومن أقوى العلامات، حسن التدبير له، يريه من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان فى قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذل للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه همماً واحداً، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شىء.

وأما محبة العبد لله تعالى،

فاعلم أن المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبس الشيطان، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى فى الجنة، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا يناقى كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء الله بعد الموت.

ومن السلف من أحب الموت، ومنهم من كرهه، إما لضعف محبته، أو لكونها مشنوبة بحب شىء من الدنيا، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب.

ومنهم من يرى نفسه فى ابتداء مقام المحبة، فسكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى، وهذا كمحب يصله الخبر بقدم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره، ويعدل له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكرهة بهذا السبب لا تنافى كمال المحبة، وعلامة هذا: الدؤوب فى العمل، واستغراق الهم فى الاستعداد.

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى متقرباً إليه بالنوافل.

ومن أحب الله فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما يضاد كمالها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نعيان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيحده ((أي يقيم عليه الحد وهو نعيان بن عمرو بن رفاعه، وكان كثير المزح)).

إلى أن أتى به يوماً، فحده فلغنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تلغنه، فإنه يحب الله ورسوله" فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة، ومن ذكر ما يتعلق به.

فعلامه حب الله تعالى حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: **{قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحسبكم الله ويعفو عنكم}** [آل عمران: 31].

وقال بعض السلف: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة، فكنت أدمن قراءة القرآن، ثم لحقني فترة فانقطعت، فرأيت في المنام قائلاً يقول:

إن كنت تزعم حبي ** فلم هجرت كتابي

أما تدبرت ما في ** من لطيف عتابي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويعتزم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

روى أن عبداً عبد الله غيضة دهرًا، فنظر إلى طائر قد عشش في شجرة يأوى إليها، ويصفر عندها. فقال: لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة كنت أنس بصوت هذا الطائر، ففعل، فأوحى الله تعالى إلي نبيهم: قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق، لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً.

فإن علامة المحبة، كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعيم بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة.

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه، حتى لا يفهم أمور الدنيا، ما لم تتكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان.

ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى، ويتنعم بالطاعة، لا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها.

قال ثابت البناني رحمة الله: كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة.

وقال الجنيد: علامة المحبة دوام النشاط، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه، وكل هذا موجود المثل في المشاهدات، فإن المحب لا يستثقل السعي في مراد محبوبه، ويستلذ خدمته بقلبه، إن كان شاقاً على بدنه، وكل حب قاهر لا محالة، فمن كان محبوب أحب إليه من الكسل، ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال، ترك المال في حبه.

ومنها أن يكون شقيقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على أعدائه، كما قال تعالى: **{أشداء على الكفار رحماء بينهم}** [الفتح:29] ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف، فهذه علامات المحبة، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته، وصفا في الآخرة شرابه. ومن امتزج بحبه حب غير الله، تنعم في الآخرة بقدر حبه، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين، كما قال عز وجل: **{إن الأبرار لفي نعيم}** إلى قوله: **{يسقون من رحيق مختوم* ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون* ومزاجه من تسنيم* عينا يشرب بها المقربون}** [المطففين: 22-28] فقبول الخالص بالصرف، والمشوب بالمشوب. **{فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره}** [الزلزال: 7-8] .ومنها أن يكون في حبه خائفاً بين الهيبة والتعظيم، فإن الخوف لا يضاد المحبة، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد.

ومنها كتمان الحب، واجتناب الدعوى، والتوقى من إظهار الوجد والمحبة، تعظيماً للحبوب، وإجلالاً له، وهيبة وغيره على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب. وقد يقع المحب في دهش وسكر، فيظهر عليه الحب من غير قصد، فهو في ذلك معذور، كما قال بعضهم.

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم

▲ 5. فصل في بيان معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله عز وجل

اعلم: أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غيره، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة.

قال عبد الواحد بن زيد: قلت لراهب: لقد أعجبتك الخلوة، فقال: لو ذقت حلاوة الخلوة لا ستوحشت إليها من نفسك، قلت: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود، خلصت المعاملة. قلت: متى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع لهم، فصارهما واحداً في الطاعة.

فإن قيل: ما علامة الأنس؟ قيل: علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرته الخلق، والتبرم بهم، وإن خالط، فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن، منفرد بالقلب.

واعلم: أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، قد يثمر نوعاً من الانبساط والإدلال، وقد يكون ذلك منكراً في الصورة، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، وإن كان محتملاً ممن أقيم مقام الأنس. وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام، أشرف به على صاحبه على الكفر، وذلك كما يروى عن أبي حفص أنه كان يمشى يوماً، فاستقبله رجل مدهوش ((أي: متحير، من

دهش الرجل يدهش: إذا تحير)) فقال: مالك؟ قال: ضل حماري، ولا أملك غيره، فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره، فظهر الحمار.

وروى عن برخ العابد أنه خرج يستقى فقال: يارب: أنت بالبخل لا ترمى، أنفذ ما عندك، اسقنا الساعة.

ولا يستبعد أن يحتل من شخص ما لم يحتل من غيره. وأما الرضى بقضاء الله تعالى، فهو من أعلى مقامات المقربين، وهو من ثمار المحبة، وحقيقته غامضة، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى.

ومن فضائل الرضى ما ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له".

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود: إنك لن تلقاني بعمل هو أَرْضَى لى عنك، ولا أحط لوزرك من الرضى بقضائي.

ونظر علي بن أبي طالب رضى الله عنه إلى عدى بن حاتم كئيباً، فقال: يا عدى: مالي أراك كئيباً حزينا؟ فقال: وما يمنعني فقد قتل ابنائي، وفقئت عيني فقال: يا عدى! من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله.

ودخل أبو الدرداء رضى الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى ، فقال أبو الدرداء : أصبت ، إن الله عز وجل إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط.

وقال أبو معاوية الأسود فى قوله تعالى: {فلنجينه حياة طيبة} [النحل: 97] قال: الرضى والقناعة.

وفى الأخبار السالفة ((فى الأصول: وفى الحديث)) : أن نبياً من الأنبياء شكأ إلى ربه عز وجل الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلي ما أراد، ثم أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندي فى أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك منى، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدل ما قدرت لك؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالى، لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة.

وفى "زبور داود" عليه السلام: هل تدري من أسرع الناس مرأً على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكرى.

وقال داود عليه السلام: يارب! أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد استخارتي فى أمر، فخرجت له، فلم يرض.

وقال عمر بن العزيز: ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر.

وقيل له: ما تشتهى؟ فقال: ما يقضى الله عز وجل.

وقال الحسن: من رضى بما قسم له، وسعه، وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه، ولم يبارك له فيه.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين.

وقال بعضهم: لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال، فمن وهب له الرضى، فقد بلغ أفضل الدرجات.

وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عبد فى عبادته لولا شماتة أعداء ذوى إحن

ما سرنى أن إبلى فى مباركها وأن شيئاً قضاه الله لم يكن

▲ 6. فصل [يتصور الرضى فيما يخالف الهوى]

ويتصور الرضى فيما يخالف الهوى. وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم، فتارة يحس به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضياً به، راعياً فى زيادته بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب. مثاله أن يلتمس من الحجام الحجامة والقص، فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راض به، وراغب فيه ومتقلد منه الحجام. وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح، فإنه يدرك مشقة السفر، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة، وجعله راضياً بها، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين، فإنه يتوقع الأجر فوق ما فاته، فيرضى بما أصابه، ويشكر الله تعالى عليه، ويجوز أن يغلبه الحب، بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه، ويبطل الإحساس بالألم لفرط الحب، وليس ذلك بعجيب، فإن الرجل المحارب فى حال غضبة أو خوفه، تصيبه الجرحات ولا يحس بها، ولا يشعر بها فى تلك الحال، وذلك لأن قلبه مستغرق، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، وذلك موجود فى المشاهدات.

قال الجنيد رحمة الله: سألت سرياً: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا.

وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء، أنهم كانوا يقولون: لو قطعنا إرباً إرباً، ما ازددنا له إلا حباً.

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم، وهو متصور فى حب الخلق، كما حكى بعضهم. قال: كان فى جيراننا رجل له جارية يحبها، فاعتلت، فجلس يصلح لها حساء ((بالفتح والمد: طعام يتخذ من دقيق وماء ودهن، وقد يحلى ويكون رقيقاً يحسى))، فبينما هو يحرك القدر، قالت: أوه، فدهش وسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم.

وبؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام، فإنهن قطعن الأيدي، وما أحسن بألم، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، وإذا كان ذلك ممكناً فى حق الخلق وحظوظهم، كان ممكناً فى حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى.

وإمكان ذلك فى ثلاثة أوجه:

أحدهما: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره.

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له"

وعن مكحول قال: سمعت ابن عمر رضى الله عنه يقول: إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسقط فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خیر له. وعن مسروق قال: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظ للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خبأهم، والكلب يحرسهم. فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار، فحزنوا، فقال، الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب، قد ذهب كليهم وحمارهم وديكهم.

وعن سعيد بن المسيب قال: قال لقمان لابنه: يا بنى: لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك. قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت. قال: يا بنى: فإن الله قد بعث نبياً هلم حتى تأتيه، فعنده بيان ما قلت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج علي حمار وابنه على حمار، وتزودوا ما يصلحهما، ثم سارا أياماً وليالى، حتى تلقهما مفازة، فأخذا أهتهما ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، فاستبطأ حماريهما، فنزلا يمشيان، فبينما هما كذلك، إذ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسواد ودخان، فقال فى نفسه: السواد شجر، والدخان عمران وناس، فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق، فدخل فى باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها، فخر مغشياً عليه، فحانت من لقمان التفاتة، فإذا هو بابنه صريع، فوثب إليه فضمه إلى صدره، واستخرج العظم بأسنانه، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فاتتبه لها، فنظر إلى أبيه يبكى، فقال يا أبت: أنت تبكى وأنت تقول هذا خير لي، فكيف ذلك وأنت تبكى؟! وقد نفذ الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت فى هذا المكان. قال: أما بكائي يا بنى، فوددت أنى افتديت بك بجميع حظي من الدنيا، ولكنى والد ومنى رقة الوالد. وأما قولك: كيف يكون هذا خيراً لى؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك، فبينما هو يحاوره، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد، فقال فى نفسه: لم أر شيئاً، ثم قال: قد رأيت، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربي بما رأيت شيئاً، فبينما هو يتفكر فى ذلك، إذا نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق، عليه ثياب بيض، يمسح الهواء مسحاً. فلم يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريباً، فتوارى عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السفية؟ قال: يا عبد الله من أنت؟ ما لي أسمع كلامك ولا أرى لك وجهك؟ قال أنا جبريل، لا يراني إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، لو لا ذلك لرأيتني، فما قال لك ابنك هذا السفية؟ قال: أما علمت ذلك؟ فقال جبريل: مالي بشيء من أمركما علم، إلا أن حفظتكما أتوني، وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها، فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة، فدعوت ربي أن يحسبكما عنى بما شاء، فحبسكما عنى بما ابتلى به ابنك، ولولا ذلك لخسف يكما مع من خسف به، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم الغلاف، فاستوى قائماً، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلاً طعاماً، ومسح على الذي كان فيه ماء فامتلاً ماء، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير، فإذا هما فى الدار التي خرجا منها بعد أيام وليالى.

الوجه الثاني: الرضى بالألم، لما يتوقع من الثواب المدخر، كما تقدم من الرضى بالفصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء.

الوجه الثالث: الرضى به لا لحظ وراءه، بل لكونه مراد المحبوب، فيكون أذ الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه، ولو كان فى ذلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم:
..... فما لجرح إذا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ.

وقد سبق أن الحب يستولي بحيث يدهش عن إدراك الألم، ولا ينبغي أن ينكر ذلك من فقدته من نفسه، لأنه إنما فقدته لفقد سببه، وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه، ولعمري إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات، فمن فقد القلب، فلا بد أن ينكر هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

▲ 7- فصل [في أن الدعاء لا يناقض الرضى]

واعلم: أن الدعاء لا يناقض الرضى، كذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها، والسعى فى إزالتها.

أما الدعاء، فقد تعبدنا الله تعالى به، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: [\[ویدعوننا رغبا ورهبا\]](#) [الأنبياء:90] ودعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم.

وأما إنكار المعاصي وعدم الرضى بها، فقد تعبدنا الله تعالى به، وذم الراضى به، وكذلك بغض الكفار والفجار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك فى القرآن والأخبار كثيرة جداً.

فإن قيل: فقد وردت الأخبار بالرضى بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى، فهو محال، وإن كانت بقضائه، فكراهتها كراهة لقضائه، فكيف الجمع بين هذين الحالين.

فاعلم أن هذا مما يلتبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم، حتى التبس على قوم، فرأوا السكوت عن الإنكار مقاما من مقامات الرضى، وسموه حسن الخلق، وهو جهل محض، بل نقول: الرضى والكراهة يتضادان، إذا تواردا على شىء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فأما إذا رضيت بشيء من وجه، وكرهته من وجه آخر، فليس ذلك بمتضاد، نحو أن يموت عدوك الذي هو أيضاً عدو لبعض أعدائك، وساع فى إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه عدوك، وكذلك للمعصية وجهان:

وجه إلى الله تعالى، من حيث إنها اختياره وإرادته، فترضى بها من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك.

ووجه إلى العبد من حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم، ولا ينكشف هذا إلا بمثال، فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدي محبة: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب لذلك معياراً صادقاً، وهو أنى أقصد إلى فلان فأضربه ضرباً شديداً يضطره ذلك إلى الشتم لى، حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدواً، فكل من أحبه علمت أنه أيضاً عدو لى، وكل من أبغضه علمت أنه محبي وصديقى، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة، فحق على كل من هو صادق فى محبته أن يقول: أما تدبيرك فى ضرب هذا الشخص وأذاه، فأنا محب له، فإنه رأيتك وتدبيرك وفعلك، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص، فإنه عدوان منه وتهجم عليك، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، فكذلك تسليط الله سبحانه وتعالى دواعي الشهوة

والمعاصي على العبد، وبغضه على عصيانه. فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله عز وجل، ويعادى من عاداه وأبعده عن حضرته، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته، فإنه بعيد مطرود، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغيضاً إلى جميع المحبين، موافقة لمحبتهم، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده.

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم، والمبالغة في مقتهم، مع الرضى بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاؤه، وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والإدارة، ولكن الشر مراد مكروه، والخير مراد مرضى به.

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع، والوقوف مع ما تعبد به الخلق، من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي، والله تعالى أعلم.

ومما يتعلق بالمحبة.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقاً إلى، وتقطعت أوصالهم من محبتي.

يا داود: هذه إرادتي في المدبرين عنى، فكيف إرادتي في المقبلين على؟

يا داود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلى.

وكانت امرأة متعبدة تقول: والله لقد سئمت الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى، وحباً للقائه. فقيل لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا، ولكنى لحبى إياه وحسن ظني به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟

8. باب في النية والإخلاص والصدق

اعلم: أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة.

فالناس كلهم هلكى، إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم ((انظر صفحة (250) حول هذا الكلام)).

فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء. قال الله تعالى: [{وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً}](#) [الفرقان: 23]. وليت شعري، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى، أن يعلم النية أولاً، لتحصل له المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة. ونحن نذكر ذلك في ثلاثة فصول:

9. الفصل الأول في النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه} [الأنعام: 52] والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه".

وعن أبى موسى الأشعري قال: جاء رجل إلى النبی صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله". أخرجهما في الصحيحين".

وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتهم طريقاً، إلا شاركوكم في الأجر، حسبهم المرض " أخرجه مسلم، وأخرجه البخاري من حديث أنس.

وفى " الصحيحين " من حديث ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "من هم بحسنة فعملها كتبت له حسنة"

وعن أبى كبشة الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه. ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، وهو يقول: لو كان لى مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فهما في الأجر سواء.

ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يخبط فيه، ينفقه في غير حقه. ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً، فيقول: لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فهما في الوزر سواء".

وعن أبى عمران الجوني قال: تصعد الملائكة بالأعمال، فينادى الملك: ألق تلك الصحيفة، قال: فتقول الملائكة: ربنا قال خيراً وحفظناه عليه. فيقول تبارك وتعالى: إنه لم يرد به وجهي. قال: وينادى الملك: اكتب لفلان كذا وكذا، مرتين. فيقول: يارب:

إنه لم يعمل، فيقول عز وجل: إنه قد نواه.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى.

وكان بعضهم يقول: دلوني على عمل لا أزال به عاملاً لله تعالى، فقيل له: انو الخير، فانك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل، فالنية تعمل وإن عدم العمل، فانه من نوى أن يصلى بالليل فنام، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله.

وقد جاء في الحديث: " ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه".

وقد جاء في الحديث "نية المؤمن خير من عمله" ((قال الحافظ السخاوى في "المقاصد الحسنة": قال البيهقي: إسناده ضعيف. قال ابن دحية: لا يصح)).

والنية، والإدارة، والقصد، عبارات متواردة على معنى واحد.

10- واعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المعاصي، فلا تتغير عن موضعها بالنية، مثل من بينى مسجداً بمال حرام يقصد بذلك الخير، فإن النية لا تؤثر فيه، فإن قصد الخير بالشر شرّاً، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً، هيهات!.

واعلم: أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، كان كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، يتكالبون على الدنيا، ويتبعون الهوى، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم.

ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص، فإن مقاصد أكثرهم معروفة، وقصدهم اجتلاب الدنيا، وأخذ الأموال كيف اتفق، فتعليمهم إعانة على الفساد، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد.

وأما المعصية، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، وأما الأصل، فهو أن ينوى عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرية النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذلك القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوى بها نيات كثيرة: منها أن ينوى بدخوله انتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح، فإن الاعتكاف كف، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله تعالى فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات، فقس على ذلك سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

القسم الثالث: المباحات، فما من شيء من المباحات إلا ويتحمل نية أو نيات، وتصير بها قربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة.

ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة لم فعله؟ وما الذي قصد به؟

مثال ما ينوى به القربة من المباحات إن يتطيب، وينوى بالطيب اتباع السنه، واحترام المسجد، ودفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه.

وقال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. وكذلك معالجة رأسه تزايد فطنته وذكائه، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه.

وقال بعض السلف: إنى لا استحب أن يكون لى في كل شيء نية، وحتى في آكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى،

لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوى على العبادة، ومن النكاح تحصين دينه، وتطبيب قلب أهله، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده، أثيب على ذلك كله، ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نيتك فيما تتركه أيضاً.

واعلم: أن النية هي انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة لها، إما في الحال أو المال، وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن أكل لله، أو عند قراءته: نويت أن أقرأ لله، وظن أن ذلك نية، وليس كذلك، إنما النية انبعاث القلب، وتجرى مجرى الفتوح من الله تعالى، وليست النية داخلة تحت الاختيار، فقد تيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تيسر له في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا .

والناس في النيات على أقسام:

منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف.

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء. وثمة مقام أرفع من هذين، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، وهذه لا تيسر لراغب في الدنيا، وهي أعز النيات وأعلاها، وقليل من يفهمها، فضلاً عن أن يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حباً له.

وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة في منامه، فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يزيد يطلبني.

وغرضنا أن هذه النيات متفاوتة في الدرجات ومن غلب على قلبه منها، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها، ومن حضرت له نية في المباح، ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذلك أن تحضره نية الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته في الحال إلى الصلاة والصوم، فالأكل والنوم أفضل، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لو رفته ساعة مباح عاد نشاطه، فذلك أفضل من التعبد حينئذ.

قال علي عليه السلام: روحوا القلوب، واطلبوا لها طرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان.

وقال بعضهم: روحوا القلوب تعي الذكر.

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء، فإن الحاذق في الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته، ويستبعد ذلك القاصر في الطب، وإنما يبتغي به أن تعود قوته ليتحمل المعالجة، وكذلك الخبير بالقتال، قد يفر من بين يدي قرنه حيلة منه، ليستجره إلى مضيق، فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان، ومعالجة للقلب، والمبصر الموفق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبدها الضعفاء، فلا ينبغي لهم ما خفي عليهم، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

▲ 11- الفصل الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

قال الله تعالى: **{وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}** [البينة: 4]، وقال: **{ألا لله الدين الخالص}** [الزمر: 3] وغير ذلك من الآيات.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "أخلص دينك يكفك القليل من العمل" (1). وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: "إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مختمة، فيقول الله عز وجل: ألقوا هذا، وأقبلوا هذا، فتقول الملائكة: وعزتك ما كتبنا إلا ما كان، فيقول: إن هذا كان لغيري، ولا أقبل اليوم إلا ما كان لي".

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويزكونه، فيوحي الله تعالى إليهم، أنتم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي لم يخلص في عمله، فاجعلوه في سجين، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه، فيوحي الله إليهم: إنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه واجعلوه في عليين".

ويروى عن الحسن قال: كانت شجرة تعبد من دون الله، فجاء إليها رجل فقال: لأقطع هذه الشجرة، فجاء إليها ليقطعها غضباً لله، فلقبه الشيطان في صورة إنسان فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع الشجرة التي تعبد من دون الله، قال: إذا أنت لم تعبدها، فما يضرك من عبدها؟ قال: لأقطعنها، فقال له الشيطان: هل لك بما هو خير لك من ذلك لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك، قال فمن لي بذلك؟ قال: أنا لك، فرجع فأصبح فوجد عند وصادته دينارين، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً، فقام غضبان ليقطعها، فتمثل له الشيطان في صورته، فقال ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله، قال كذبت، مالك إلى قطعها سبيل، فذهب ليقطعها، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله، ثم قال له أتدرى من أنا؟ فأخبره أنه الشيطان، وقال: جئت أول مرة غضباً لله، فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين فسلطت عليك.

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: يا نفسي أخلصي وتخلصي. وقال أبو سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى.

وحكى أن رجلاً كان يخرج في زي النساء، فيحضر حيث يحضرون من عرس، أو مأتم، فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء، فسرقت درة، فصاحوا، أغلقوا الباب حتى نفتش، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا: أطلقوا الحرة، فقد وجدنا الدرة.

12- بيان حقيقة الإخلاص

اعلم: أن كل شئ يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه، سمي إخلاصاً. والإخلاص يصاده الإشراك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات.

فالإخلاص في التوحيد يصاده الشرك في الإلهية.

والشرك منه جلى، ومنه خفي، وكذلك الإخلاص، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم في باب، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن أمتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء، أو من غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذلك، أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو للتخلص من شر يعرض له، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها، أو يصلى بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام، ونحو ذلك، فمتى كان باعته التقرب إلى الله تعالى ولكن أنضاف إليه خاطر من هذه الخواطر حتى صار العمل أخف عليه بسبب من هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص.

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن شئ من هذه الأمور، فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى، نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى.

قيل لسهل: أي شئ أشد على النفس؟ قال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب.

واعلم: أن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة، بعضها جلى، وبعضها خفي، وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه.

ومن الرياء ما هو أخفى من دبيب النمل، فليطلب هناك، وحاصله أن مادام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حالة من العمل، فهو خارج عن صفو الإخلاص، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه.

وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي.

▲ 13- فصل في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

أما العمل الذي لا يريد به إلا الرياء فهو على صاحبه لا له، وهو سبب للعقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب. ولا إشكال في هذين القسمين، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس.

وقد اختلف الناس في ذلك، هل يقتضي ثواباً أو عقاباً، أو لا يقتضي شيئاً أصلاً؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك.

والذي يتضح لنا فيه -والعلم عند الله تعالى- أن ننظر إلى قدر قوة البواعث، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفساني تقاوماً وتساقطاً، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى، ضر وأوجب العقاب، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء، وإن كان الباعث الديني أقوى من الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، قال الله تعالى: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها} [النساء: 40]

وبشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة، صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس، إلا أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلي، لم ينفك السفر عن ثواب، وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع، حصل له الثواب، ولكنه لا يساوى ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً، والله تعالى أعلم.

▲ 14. الفصل الثالث في الصدق وحقيقته وفضله

عن عبد الله بن مسعود رضی الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :
"عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً" رواه البخاري ومسلم.

وقال بشر الحافي : من عامل الله بالصدق، استوحش من الناس.

واعلم أن لفظ الصدق قد يستعمل في معان:

أحدهما: الصدق في القول: فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلا بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

وينبغي أن يحترز عن المعارض، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد غزوة ورى بغيا لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : "ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيرا، أو نعى خيرا".

وينبغي أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب.

الثاني: الصدق في النية والإرادة، وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازح عمله شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة: العالم، والقارئ، والمجاهد. لما قال القارئ: قرأت القرآن إلى آخره، إنما كذبه في إرادته ونيته، لا في نفس القراءة، وكذلك صاحبه.

الثالث: الصدق في العزم والوفاء به.

أما الأول: فنحو أن يقول: إن آتاني الله مالاً تصدقت بجميعة، فهذه العزيمة قد تكن صادقة، وقد يكون فيها تردد.

وأما الثاني: فنحو أن يصدق في العزم وتسخو النفس بالوعد، لأنه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت الحقائق، وانجلت العزيمة، وغلبت الشهوة، ولذلك قال الله تعالى: [{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}](#) [الأحزاب: 23] وقال في آية أخرى: [{ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن}](#) إلى قوله [{وبما كانوا يكذبون}](#) [التوبة: 75-77].

الرابع: الصدق في الأعمال، وهو أن تستوي سريرته وعلايته، حتى لا تدل أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه، ويكون الباطن بخلاف ذلك. قال مطرف: إذا استوت سريرة العبد وعلايته قال الله عز وجل: هذا عبدي حقاً.

الخامس: الصدق في مقامات الدين، وهو أعلى الدرجات، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقاً، قال الله تعالى: [{ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر}](#) . إلى قوله: [{أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون}](#) [البقرة: 177] وقال تعالى: [{إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل أولئك هم الصادقون}](#) [الحجرات: 15].

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول: ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً يطلق عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد خوفاً من وقوع المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شئ من ذلك عند فعل المصيبة، ولذلك قال عامر بن عبد قيس: عجبت للجنة نام طالبها، وعجبت للنار نام هاربها.

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً، فلا غاية لهذه المقامات حتى نال تمامها، ولكن لكل حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوى، فإذا قوى سمي صادقاً، وإذا علم الله من عبد صدقاً صغى له، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز، وقد يكون للعبد صدق في بعضها دون بعض. ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً وكراهة اطلاع الخلق على ذلك.

▲ 15- باب في المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالى: {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه} [آل عمران: 30] وقال: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين} [الأنبياء: 47] وقال: {ووضع الكتاب فترى المحرمن مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ريبك أحداً} [الكهف: 49] وقال: {يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروأ أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} [الزلزلة: 6-8] فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة.

وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة، فمن حاسب نفسه في الدنيا، خف في القيامة حسابه، وحسن منقبله، ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته، فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمراقبة فقال: {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا} [آل عمران: 200] فربطوا أنفسهم أولاً بالمشاركة، ثم المراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاقبة، فكانت لهم في المراقبة ست مقامات، وأصلها المحاسبة، ولكن كل حساب يكون بعد مشاركة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاقبة والمعاقبة، ولا بد من شرح ذلك المقام.

▲ المقام الأول: المشاركة

اعلم: أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح، ويشارطه ويحاسبه، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس، ويوظف عليها الوظائف، ويشترط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ثم لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا، فحتم على ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها.

فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة نفسه فيقول للنفس: ما لى بضاعة إلا العمر، فإذا فني منى رأس المال وقع اليأس من التجارة، وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وآخر أجلي، وأنعم على به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي يا نفس أنك قد توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم، وأعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون

ساعة، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيحصل له من السرور، بشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاها ظلامها، وهي الساعة التي عصا الله تعالى فيها، فيحصل له من الفزع والخزي ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من المباح، ويتحسر على خلوها، ويناله ما نال القادر على الريح الكثير إذا أهمله حتى فاته، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه، اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتي، ولا تدعيها فارغة، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك.

قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ فهذه وصيته في نفسه وفي أوقاته، ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة، وهي: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إلى النفس، فإنها رعايا خادمة لها في هذه التجارة المخلدة، بها يتم أعمالها، ويعملها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء، فتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، أو إلى مسلم بعين الاحتقار، وعن كل فضول مستغنى عنه، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومطالعة كتب الحكم للتعاطف والاستفادة. وهكذا ينبغي أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية، بما يليق به، ولا سيما اللسان والبطن، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم، فيشغله بما خلق له، من الذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، إلى غير ذلك من الخير.

وأما البطن، فيكلفه ترك الشرة، واجتناب الشبهات والشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ويشترط على نفسه إذا خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن، ليفوتها أكثر مما نالت بشهواتها، وهكذا في جميع الأعضاء، واسقضاء ذلك يطول، وكذلك ما تخفى طاعات الأعضاء ومعاصيها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم والليل، في النوافل التي يقدر عليها، وعلى الاستكثار منها، وهذه شروط يفترق إليها كل يوم إلى أن تتعود النفس ذلك، فيستغني عن المشاركة، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك، إذ قل أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها، فعليه أن يشترط نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحق.

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
"الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على
الأماني" (2) .

وقال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا،
وتهيئوا للعرض الأكبر {يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية} [الحاقة: 18]

▲ المقام الثاني: المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها، وفى الحديث الصحيح في تفسير الإحسان، لما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" أرد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة. قيل: دخل الشبلعلي ابن أبى الحسين النورى (3) وهو قاعد ساكن، لا يتحرك من ظاهر شئ، فقال له: ممن أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر حتى لا يتحرك لها شعرة.

وينبغى أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفى العمل، هل حركه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان الله تعالى، أمضاه وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص.

قال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

فهذه مراقبة العبد في الطاعة وهو أن يكون مخلصاً فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها، ولا يخلو من بلية لا بد من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وقال وهب من منبه في حكمة آل داود: حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات، ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه على نفسه، وساعة يخلو بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم، فإن هذه الساعة عون على الساعات وجمام للقوة.

وهذه الساعة التي هو مشغول فيها بالمطعم والمشرب، لا ينبغي أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح.

▲ المقام الثالث: المحاسبة بعد العمل

قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} [الحشر: 18] وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد العمل، ولذلك قال عمر رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه، وقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لى ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء.

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وجال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبتة، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفى بصره، وفى لسانه، وفى جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

واعلم: أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار، ويحاسبها على جميع ما كان منها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم.

ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المال، وفى الربح، وفى الخسران لتبين له الزيادة من النقصان، فرأس المال في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وليحاسبها أولاً على الفرائض، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفى منها ما فرط.

قيل: كان توبة بن الصمة بالرقعة، وكان محاسباً لنفسه، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتا! ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب! كيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب!! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى!

فهكذا ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لو رمي بكل معصية يفعلها حجراً في داره لامتلات داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهى مثبتة [{أحصاه الله ونسوه}](#).

▲ **المقام الرابع : معاقبة النفس على تقصيرها :**

اعلم: أن المريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يمهلهما، فإنه يسهل عليه حينئذ مفارقة الذنوب ويعسر عليه فطامها، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده.

وكما روى عن عمر رضى الله عنه: أنه خرج إلى حائط له، ثم رجع وقد صلى الناس العصر، فقال: إنما خرجت إلى حائطي، ورجعت وقد صلى الناس العصر، حائطي صدقة على المساكين. قال الليث: إنما فاتته الجماعة.

وروينا عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان، فلما صلاها أعتق رقبتين.

وحكى أن تميم الداري رضى الله عنه نام ليلة لم يقم يتهدج فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع.

ومرّ حسان بن سنان بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعينك! لأعاقبك بصوم سنة، فصامها.

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل، فيحرم عليه فعله، مثال ذلك: ما حكى أن رجلاً من بنى إسرائيل، وضع يده على فخذ امرأة، فوضعها في النار حتى شلت، وأن آخر حوّل رجله لينزل إلى امرأة، ففكر وقال: ماذا أردت أن أصنع؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال: هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي، فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينيه، فهذا كله محرم، وإنما كان جائزاً في شريعتهم، وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا، حملهم على ذلك الجهل بالعلم، كما حكى عن غزوان الزاهد: أنه نظر إلى امرأة، فلطم عينه حتى نفرت.

وروينا عن بعضهم : أنه أصابته جنابة وكان البرد شديداً، وأنه وجد في نفسه توقفاً عن الغسل، فآلى ألا يغتسل إلا في مرقعته، ألا ينزعها ولا يعصرها، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلاً. وقد ذكرت كثيراً من هذا الفن الصادر عن المتعبدين على الجهل في كتابي المسمى بـ"تلبيس إبليس"

▲ **المقام الخامس: المجاهدة**

وهو أنه إذا حاسب نفسه، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل بى شئ من الفضائل، أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمر رضى الله عنه أنه فاتته صلاة في جماعة، فأحيا الليل كله تلك الليلة، وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع.

وقال ابن الميارك: إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهاً.

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين، وما ورد في فضلهم، ويصح من يقدر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله.

قال بعضهم: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده؟ فعملت على ذلك أسبوعاً. وقد كان عامر بن عبد قيس يصلى كل يوم ألف ركعة. وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفر، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً، وكان داود الطائى يشرب الفتيت مكان الخبز، ويقرأ بينهما خمسين آية، وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات، وكان عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلي يبكيان الدم، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة، وجاور أبو محمد الحريري سنة فلم ينم ولم يتكلم، ولم يستند إلى حائط، ولم يمد رجله، فقال له أبو بكر الكتاني: بم قدرت على هذا؟ قال: علم صدق باطني فأعاني على ظاهري.

ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت: إنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شئ لم يدركه غداً والله يا إخوتاه! لأصلين لله ما أقلتني جوارحي، ولأصومن له في أيام حياتي، ولأبكين ما حملت الماء عيناى.

ومن أراد أن ينظر في سير القوم، ويتفرج فى بساتين مجاهداتهم، فلينظر فى كتابي المسمى بـ "صفة الصفوة" فإنه يرى من أخبار القوم ما يعد نفسه بالإضافة إليهم من الموتى، بل من أخبار المتعبدات من النسوة ما يحقر نفسه عند سماعه.

المقام السادس: فى معاتبة النفس وتوبيخها

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من مقت نفسه فى ذات الله آمنه الله من مقته.

وقال أنس رضى الله عنه : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ودخل حائطاً فسمعته يقول وبينى وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بخ بخ، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبك.

وقال البخترى بن حارثة: دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أجهها وهو يعاتب نفسه، فلم يزل يعاتبها حتى مات.

وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون: فأف لى وتف. واعلم: أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وغطاؤها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل الدهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تطفر بها بعد ذلك، وإن لزمها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفل عن تذكيرها. وسيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفتنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف فى

يومه أو فى غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتى بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت. فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جراتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد رقاعتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جربي ذلك بالقعود ساعة فى الحمام، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة منعت أكالات. وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتهاى لشربه طول العمر؟ فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة؟ أبصير ثلاثة أيام ليتنعم إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا. وليت شعري! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول، أم النار فى الدركات؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطيق ألم العذاب فى الآخرة؟ أشغلك حب الجاه؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها، لا تبقى أنت ولا من كان لك عنده جاه. هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال فى صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صباية، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعلمي فى أيام قصار لأيام طول، وأعدى الجواب للسؤال. أخرجني من الدنيا خروج الأحرار قبل أن تكون خروج اضطرار إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسر. تفكري فى هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكي على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة.

▲ 16. باب التفكير

قد أمر الله سبحانه بالتفكير والتدبر فى كتاب العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: [{وتتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً}](#) [آل عمران: 191] وقال: [{إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون}](#) [الرعد: 3].

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله" (4).

قال أبو الدرداء رضى الله عنه: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم إلا علم، وما علم إلا عمل.

وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه. وقال الفريابي فى قوله تعالى: [{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق}](#) [الأعراف: 147]، قال: أمنع قلوبهم من التفكير فى أمرى.

وكان داود الطائى على سطح فى ليلة قمراء، فتفكر فى ملكوت السموات والأرض، فوقع فى دار جار له، فوثب عرباناً وبيده السيف، فلما رآه قال: يا داود، ما الذى ألقاك؟ قال: ما شعرت بذلك.

وقال يوسف بن أسباط: إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها، بل لينظر بها إلى الآخرة. وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم.

وقال أبو بكر الكتاني. روعة عند انتباهة من غفلة، وانقطاع عن حظ نفساني، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقيلين.

▲ 17- بيان مجارى الفكر وثمراته

واعلم: أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين، وقد يجرى فى أمر يتعلق بغيره، وإنما عرضنا ما يتعلق بالدين، وشرح ذلك يطول. فلينظر الإنسان فى أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات. فلا تغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله، والمقربة إليه.

وينبغى لكل مرید أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهى: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشبهه الطعام، وشبهه الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد فى الدنيا والإخلاص فى الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع.

فهذه عشرون خصلة: عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كفى من المذمومات واحدة خط عليها فى جريدته، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم ألا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع. وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلاً، خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المرید المشتمر.

فأما أكثر الناس من المعدودين فى الصالحين، فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والمراد، والثناء على النفس، والإفراط فى موالة الأولياء، ومعاداة الأعداء، والمداهنة فى ترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من جوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي فى جوارحه، ومالم تطهر الجوارح من الآثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغى أن يكون تفقدتهم لها وتفكيرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو فى غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ. ومن فعل ذلك، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون. وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغابروا كما يتغابرون النساء وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات فى سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها.

ومن أحسن من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه. وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لاندراست العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عنى، ولو مت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبى، فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

▲ 18- فصل [فى أن التفكير فى ذات الله ممنوع منه]

قد تقدم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: **"تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله"** فالتفكر فى ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحير فى ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكير، أو تتوهمه القلوب بالتصوير: **{ليس كمثل شىء وهو السميع البصير}** [الشورى:11].

فأما التفكير فى مخلوقات الله تعالى، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله تعالى: **{إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب}**...[الآيات] آل عمران: 190]. وقوله **{فل انظروا ماذا فى السموات والأرض}** [يونس:101].

ومن آيات الله تعالى الإنسان المخلوق من نطفة، فيتفكر الإنسان فى نفسه، فإن فى خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى بالتدبر فى نفسه، فقال: **{وفى أنفسكم أفلا تبصرون}** [الذاريات: 21]. وقد تقدم فى كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الإنسان فليطلب هناك.

ومن آياته الجواهر المودعة فى الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفيروز ونحوها، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها. ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التى هى قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض. ولو جمع المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم، وفى البحر عجائب أضعاف ما نشاهده فى البر.

وانظر كيف خلق اللؤلؤ، ودورة فى صدفة تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان فى صم الصخور تحت الماء، وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيرها فى البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها ومنع خروجها، لبذل جميع خزائن الأرض فى إخراجها، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة.

ومن آياته الهواء وهو جسم لطيف لا يرى بالعين، ثم انظر إلى شدته وقوته، وانظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب. وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر فى الماء، ثم انظر إلى السماء وعظمتها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة فى لونه وشكله وموضعه، وانظر إلى إيلاج الليل فى النهار، والنهار فى الليل، وانظر مسير الشمس، كيف اختلف فى الصيف والشتاء والربيع والخريف.

وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، وإن أصغر كوكب فى السماء مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السماء التى فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها، والعجب منك أنك تدخل بيت غنى مزخرف مموه بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه، ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت إلى نحوه بقلبك، ولا تتفكر فى بناء خالقك، فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك، فما مثلك فى غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذى حفرته فى حائط قصر الملك، فتلقى أختها فتحدث معها فى حديث بيتها، وكيف بنته وما جمعت فيه، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه. فهكذا أنت فى غفلتك، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك.

فهذا بيان معاهد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين، والأعمار تقصر، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم. فتفكر فيما أشرنا إليه ها هنا مع ما قدمناه من الإشارة في كتاب الشكر. فمن نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب، شقي. نعوذ بالله من تأثير بعضها في بعض الجهال، ومن الركون إلى أسباب الضلال، ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن، فلذلك عدلنا عنه إلى ما نراه والله أعلم.

▲ 19- باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

اعلم: أن المنهمك في الدنيا المكب في غرورها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه، ثم الناس إما منهمك، أو تائب مبتدىء، أو عارف منتبه.

فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه، ويشتغل بزمه، وهذا لا يزيد ذكر الموت من الله تعالى إلا بعداً.

وأما التائب، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت. ولا يدخل بهذا تحت قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من كره لقاء الله كره الله لقاءه" فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصور وتقصيره، فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهاً للقائه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا.

وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائماً، لأنه موعد لقاء الحبيب، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه. هذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت، ويحبه ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما قال بعضهم: حبيب جاء على فاقة.

فإذن: التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل تكون الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضى، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كل حال، ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك في الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره.

▲ 20- باب ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أبي هريرة رضى الله عنه رضى الله عنه قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أكثرُوا ذكر هادم اللذات: الموت".

وعن أنس رضى الله عنه: أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأحسنوا عليه الثناء، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "كيف كان ذكر صاحبكم للموت؟" قالوا: ما كنا نسمعه يذكر الموت. قال: " فإن صاحبكم ليس هناك" (5).

وعن ابن عمر رضى الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل: أي المؤمنين أكيس، قال: أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس" (6).

وقال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فيها فرحاً، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمر رضى الله إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيدهم جنازة. وكان حامد القيصري يقول: كلنا قد أيقن الموت، وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، كلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فلا تفرحون؟ وما عسيتم تنتظرون؟! الموت، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير أو بشر، فيا إخوتاه! سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً.

وقال شميظ بن عجلان: من جعل الموت نصب عينيه، لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها.

واعلم: أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلّة فكرهم وذكرهم له، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت، والطريق فى ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة، أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا فى ذلك. وأنفع طريق فى ذلك ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قلبه، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: السعيد من وعظ بغيره. وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: إذا ذكر الموتى، فعد نفسك كأحدهم.

وينبغى أن يكثر دخول المقابر، ومتى سكنت نفسه إلى شىء فى الدنيا، فليتفكر فى الحال أنه لا بد من مفارقتها، ويقصر أمله.

وقد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبي فقال: "كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

وفى حديث آخر " إن أخوف ما أخاف على أمتي: الهوى وطول الأمل، فأما الهوى فيضل عن الحق، وأما طول الأمل فينسى الآخرة" (7).

وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: " أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟" قالوا: نعم يا رسول الله ؟ قال: "قصروا الأمل، وأثبتوا أجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله عز وجل حق حياته (8)". وعن أبى زكريا التيمى قال: بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام، إذا أتى بحجر منفوش، فطلب من يقرأه، فإذا فيه: ابن آدم! لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك، ولرغبت فى الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك، وألمك أهلك وحشمك، فبان منك الوالد والنسب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا فى حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة.

واعلم : أن السبب فى طول الأمل شيئان:

أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من ذكره شيئاً

دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيمنى نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء فى الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه. فإن خطر له الموت فى بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سوف بذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب. وإذا كبر قال: إلى أن تصير شيخاً، وإن صار شيخاً، قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة. فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يحرص فى إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم، ويشغل بشغل بعد شغل، إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

وأكثر صياح أهل النار من " سوف " يقولون: واحسرتاه! من سوف " . وأصل هذه الأمانى كلها، حب الدنيا والأنس بها، والغفلة عن قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: " أحب ما شئت فإنك مفارقه " .

السبب الثانى: الجهل، وهو أن الإنسان يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أو ليس يتفكر المسكين فى أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر؟ وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشباب وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتى فجأة، وإن استبعد ذلك، فإن

المرض يأتى فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لعظم ذلك عنده واستعد للموت.

▲ 21- فصل [في تفاوت الناس فى طول الأمل]

والناس متفاوتون فى طول الأمل تفاوتاً كثيراً ، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم من لا يقطع أمله بحال، ومنهم من هو قصير الأمل، فروى عن أبى عثمان النهدي أنه قال: بلغت ثلاثين ومائه سنة، وما من شىء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملى فإنه كما هو.

وحكى فى قصر الأمل أن امرأة حبيب أبى محمد قالت: كان يقول لى- يعنى أبا محمد- إن مت اليوم فأرسلني إلى فلان يغسلني ويفعل كذا، واصنعي كذا وكذا، فقيل لها: أرى رؤباً؟ قالت: هكذا يقول كل يوم.

وعن إبراهيم بن سبط قال: قال لى أبو زرعة: لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك: ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة، فحدثني نفسي أن أرجع إليه. وقيل لبعضهم: ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وعن محمد بن أبى توبة قال: أقام معروف الصلاة ثم قال لى: تقدم، فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: أنت تحدث نفسك أنك تصلى صلاة أخرى؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل.

فهذه أحوال الزهاد فى قصر الأمل، وكلما قصر الأمل، جاد العمل، لأنه يقدر أن يموت اليوم، فستعد استعداد ميت، فإذا أمسى شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أنه يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل.

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففي " صحيح البخاري " عن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ".

وعنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل وهو يعظه: " اغتتم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك،

وقال عمر رضى الله عنه: التؤدة فى كل شىء خير، إلا ما كان من أمر الآخر.

وكان الحسن يقول: عجباً لقوم أمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وحبس أولهم على آخرهم، وهم قعود يلعبون.

قال سحيم مولى بنى تميم: جلست إلى عبد الله بن عبد الله، فأوجز فى صلاته، ثم أقبل على وقال: أرحني بحاجتك، فإني أبادر. فقلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت . وكان يصلى كل يوم ألف ركعة.

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن، فكان ابن عمر يقوم فى الليل فيتوضأ ويصلى، ثم يغفى إغفاء الطير، ثم يقوم يصلى، يفعل ذلك مراراً. وكان عمير بن هانئ يسبح كل يوم مائه ألف تسيحه، وقال أبو بكر بن عياش: ختمت القرآن فى هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة.

▲ 22- فصل في ذكر شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم: أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول سوى الموت، لكان جديراً أن ينغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتطول فيه فكرته. والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات، لكدرت عليه عيشه ولذته، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وهو غافل عن ذكر ذلك، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

اعلم: أن الموت أشد من ضرب السيف، وإنما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوته، وأما الميت عند موته، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه، لأن الكرب قد بالغ فيه، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه، وضعفت كل جارحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة. وتجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذه، حتى تبلغ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر".

وقد روى أن الملكين الموكلين بالعبد يتراءيان له عند الموت، فإن كان صالحاً أثنيا عليه، وقالوا: جزاك الله خيراً، وإن كان صعبهما بشر، قالوا: لا جزاك الله خيراً (9).

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إن الله عز وجل وكل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله، فإذا مات قالوا: قد مات، أتأذن لنا أن تصعد إلي السماء؟ قال: فيقول الله تعالى: إن سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحونني، فيقولون: فتأذن لنا فنقيم فى الأرض؟ فيقول الله تعالى: إن أرضي مملوءة من خلقي، يسبحونني. فيقولان: فأين نقيم؟ فيقول: قوما على قبر عبدى، فسبحاني واحمداني وكبراني وهللاني، واكتبنا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة".

وفى " الصحيحين " من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، وأما صاحب النار الذي ختم له بسوء فهو يبشر بها وهو فى تلك الأحوال ".

وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة، وقد ذكر ذلك فى كتاب الخوف، وهو لائق بهذا المكان، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء، وأن يلفظ بنا، وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم.

وأما ما يستحب من الأحوال عند المحتضر، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى، ولسانه ينطق بالشهادة، والسكون من علامات اللطف، وهو أمانة على أنه قد رأى الخير، وقد روى أن روح المؤمن تخرج رشحا.

ويستحب تلقيه : لا إله إلا الله، كما جاء فى الحديث الصحيح من رواية مسلم: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله".

وينبغى للملقن أن يرفق به، ولا يلج عليه. وقد جاء فى حديث آخر: "احضروا موتاكم، ولقنوهم لا إله إلا الله، وبشروهم بالجنة، فإن الحليم العليم من الرجال والنساء يتخير عند ذلك المصرع، وإن إبليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد فى ذلك الموطن" (10). وذكر الحديث إلى آخره. وفى الحديث الصحيح : "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله".

وروى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم دخل على رجل وهو يموت فقال : "كيف تجدك؟" قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي . فقال: "ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمنه من الذي يخاف".

والرجاء عند الموت أفضل ، لأن الخوف سوط يساق به، وعند الموت يقف البصر، فينبغى أن يتلطف به، ولأن الشيطان يأتي حينئذ يسخط العبد على الله فيما يجرى عليه، ويخوفه فيما بين يديه، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو.

وقال سليمان التيمى لابنه عند الموت : يا بني! حدثني بالرخص، لعلي ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به.

وينبغى لكل مرید أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة ، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهى: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشرة الطعام، وشرة الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد فى الدنيا والإخلاص فى الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع.

فهذه عشرون خصلة: عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كفى من المذمومات واحدة خط عليها فى جريدته، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم ألا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع. وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا

اتصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلاً، خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المرید المশمر.

فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في جرائمهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والمراد، والثناء على النفس، والإفراط في موالة الأولياء، ومعادة الأعداء، والمداهنة في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من جوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، ومالم تطهر الجوارح من الآثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغي أن يكون تفقدتهم لها وتفكيرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ. ومن فعل ذلك، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون. وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغابروا كما يتغابرن النساء وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها.

ومن أحسن من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه. وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لاندراست العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عنى، ولو مت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي، فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

▲ 23. باب ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين رضی الله عنهم

اعلم : أن في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة في كل أحواله، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحد أحب إلى الله تعالى منه ، ولم يؤخره الله تعالى حين انقضى أجله.

وقد لقي صلى الله عليه وآله وسلم من الموت شدة ، فروى البخاري في " صحيحه " من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ركوة أو علة فيه ماء، فجعل يدخل يده في الماء ، فيمسح بها وجهه ويقول : " لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات ". وفي " صحيح البخاري " من حديث أنس رضي الله عنه قال : لما ثقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة رضي الله عنها : واكرب أبتاه ! فقال لها: " ليس على أبيك كرب بعد اليوم ". وروى ابن مسعود قال : اجتمعنا في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها، فنظر إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدمعت عيناه، فنعى إلينا نفسه وقال: مرحباً، حياكم الله بالسلام، حفظكم الله، ورعاكم الله ، جمعكم الله ، نصركم الله ، وفقكم الله، نفعكم الله ، رفعكم الله، سلمكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم " . قلنا: يا رسول الله : متى أجلك؟ قال : " قد دنا الأجل، والمنقلب إلي الله، والى سدرة المنتهى وجنة المأوى ، والفردوس الأعلى " . قلنا: يا رسول الله ، ففيم نكفئك؟ قال: " في ثيابي هذه إن شئتم ، أو يمنية ، أو بياض " فقلنا : يا رسول الله! من يصلي عليك؟ وبكىنا، فقال : " مهلاً، رحمكم الله ، وجزاكم عن نبيكم خيراً ، إذا غسلتموني وكفنتموني، فضعوني على سريري هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي عليّ خليلي وحبيبي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت، ثم ملائكة كثيرة، ثم ادخلوا عليّ فوجاً فوجاً، فصلوا عليّ وسلموا تسليمًا، ولا تؤذوني بتذكية ، ولا برنة، ولا بصيحة، وليبدأ بالصلاة

عليّ رجال أصحابي ، وعلى من تابعني على ديني إلى يوم القيامة، ألا واني أشهدكم أني قد سلمت على كل من دخل في الإسلام" (11) ولقد دخل عليه جبريل قبل موته بثلاثة أيام فقال: يا محمد؟ إن الله أرسلني إليك يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول: كيف تجدك؟ فقال: " أجدني يا جبريل مغموماً، وأجدني مكروباً" ثم أتاه في اليوم الثاني، فأعاد الكلام، وأعاد عليه الجواب، ثم جاءه في اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام، فأعاد عليه الجواب، فإذا ملك الموت يستأذن، فقال جبريل: يا أحمد! هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك، فقال: " ائذن له"، فدخل، فوقف بين يديه وقال: إن الله أرسلني إليك: وأمرني أن أطيعك، فإن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تتركها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " وتفعل يا ملك الموت؟" قال: كذلك أمرت أن أطيعك. فقال جبريل: يا أحمد! إن الله قد اشتاق إليك.

فقال: "فامض لما أمرت به يا ملك الموت"، فقال جبريل عليه السلام: السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر موطني في الأرض إنما كنت حاجتي من الدنيا (12). فتوفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستنداً إلى صدر عائشة رضي الله عنها في كساء ملبد، وإزار غليظ، وقامت فاطمة رضي الله عنها تندب وتقول: يا أبتاه! أجا ربنا دعاه، يا أبتاه! جنة الفردوس ماواه، يا أبتاه! إلى جبريل نعاها، يا أبتاه! من ربه ما أدناه، فلما دفن قالت: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال أبو بكر رضي الله عنه :

لما رأيت نبينا متجنّدا ضاقت على بعرضهن الدور

وارتعت روعه مستهام واله والعظم منى واهن مكسور

أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى وبقيت منفرداً وأنت حسيير

ياليتنى من قبل مهلك صاحبي غيب في جدث على صخور

24- وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

روى أبو المليح أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر رضي الله عنه فقال: إنى أوصيك بوصية، إن أنت قبلت عني: إن لله عز وجل حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقلت ذلك عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم في الدنيا، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة، وآية الشدة عند آية الرجاء، ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقى بيديه إلى التهلكة، ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن أنت حفظت وصيتي هذه، فلا يكون غائب أحب إليك من الموت، ولا بد لك منه، وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت، ولا بد لك منه ولست تعجزه.

وقيل: لما احتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولني: {وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد} [ق:19]. انظروا ثوبي هذين، فاغسلوهما وكفنونني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

25- وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وعن ابن عمر قال: كان رأس عمر في حجري بعد ما طعن، وكان مرضه الذي توفى فيه، فقال: ضع خدي على الأرض، فقلت: وما عليك إن كان في حجري أم على الأرض؟ ووطننت أن ذلك ترم به، فلم أفعل، فقال: ضع خدي على الأرض لا أم لك، ويلي وويل أمني إن لم يرحمني ربي.

وروى أنه لما طعن وحمل إلى بيته، وجاء الناس يثنون عليه، جاء رجل شباب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله لك، صحبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، فقال: وودت أن ذلك كان كفافاً، لا لى ولا على، ثم قال: يا عبد الله بن عمر، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن عند صاحبيه. فمضى وسلم واستأذن عليها، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكى، فقالت: عمر يقرأ عليك السلام، ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسى، ولأوثرنه اليوم على نفسى. فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما وراءك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، قد أذنت. قال: الحمد لله، ما كان شئ أحب إلي من ذلك، فإذا أنا مت فاحملوني، ثم سلم، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فان أذنت لي، فأدخلوني، وإن ردتني، فردوني إلى مقابر المسلمين.

وفى أفراد مسلم من حديث المسور بن مخرمة، أن عمر قال: والله لو أن لى طلاع (14) كتوم طلاع الكسف لا دون ملثها ولا عجزها عن موضع الكف أفضلًا)). <

الأرض ذهباً، لا فتديت به من عذاب الله قبل أن أراه.

وفى خبر آخر: والله لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت، لا فتديت به من هول المطلع.

26- وفاة عثمان بن عفان رضى الله عنه

عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضى الله عنه، قالت: لما كان اليوم الذي قتل فيه عثمان، ظل في اليوم الذي قبله صائماً، فلما كان عند إفطاره، سألهم الماء العذاب فلم يعطوه، فنام ولم يفطر، فلما كان وقت السحر أتيت جارات لى على أجاجير متصلة، فسألتهم الماء العذب، فأعطوني كوزاً من ماء، فأتيته فحركته فاستيقظ، فقلت: هذا ماء عذب، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر، فقال: إني قد أصبحت صائماً، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اطلع على من هذا السقف ومعه ماء عذب، فقال: " اشرب يا عثمان ! فشربت حتى رويت، ثم قال: " ازدد"، فشربت حتى نهلت، ثم قال: " إن القوم سينكرون عليك، فإن قاتلتهم ظفرت، وإن تركتهم أفطرت عندنا" قال: فدخلوا عليه من يومه فقتلوه.

وعن العلاء بن الفضيل، عن أبيه، قال: لما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه فتشوا خزائنه، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه، فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها: هذه وصية عثمان، بسم الله الرحمن الرحيم، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، عليها نحياء، وعليها نموت، وعليها نبعث إن شاء الله تعالى.

27- وفاة على بن أبى طالب رضى الله عنه

عن الشعبي، قال: لما ضرب على رضى الله عنه تلك الضربة، قال: ما فعل بضاربي؟ قالوا: أخذناه، قال: أطعموه من طعامي، واستقوه من شرابي، فإن أنا عشت رأيت فيه رأيي، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها، ثم أوصى الحسن أن يغسله وقال: لا تغالي في الكفن، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: " لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً"، امشوا بى المشيتين لا تسرعوا بى، ولا تبطلوا ، فإن كان خيراً عجلتموني إليه، وإن كان شراً أقيتموني عن أكتافكم.

وروى أنه لما كانت الليلة التي أصيب فيها على رضى الله عنه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام يمشى وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لا قيك

(15) حيازيمك للموت فإن الموت لا قيك

ولكن الفصحاء من العرب يزيدون ما يمله المعنى، ولا يعتدون به في الوزن. والحيزوم: ما اشتمل عليه الصدر، وجمعه حيازيم، ويقال للرجل: أشدد حيازيمك لهذا الأمر، أي وطن نفسك عليه))<

ولا تجزع من الموت وإن حل بناديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه.

▲ 28- ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم وذكر زيارة القبور ونحو ذلك

لما نزل الموت بالحسن بن على رضى الله عنهما قال: أخرجوا فراشي إلى صحن الدار، فأخرج فقال: اللهم إني احتسب نفسي عندك، فإني لم أصب بمثلها.

وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم. وروى أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال: انظروا هل أصبحنا؟ فأتى فقيل: لم تصبح، حتى أتى في بعض ذلك، فقيل له: لقد أصبحنا، فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها النار، ثم قال: مرحباً بالموت زائر مغيب، وحبیب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك وأن اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار (16) ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

وقال أبو مسلم: جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول: ألا رجل يعمل لمثل

مصرعي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتني هذه؟ ثم قبض رحمه الله.

وبكى سليمان الفارسي عند موته، فقيل له ، ما يبكيك؟ فقال: عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب، وحولي هذه الأزواد. وقيل: إنا كان حوله إجانة وجفن ومطهرة.

وروى المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله واردة، ولا أدري أروحى تصير إلى الجنة فأهنتها، أم إلى النار فأعزيتها، ثم أنشد يقول:

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي جعلت الرجا مني بعفوك سلماً

تعاطمي ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرماً

وينبغي لكل مرید أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم.

وبكفيه من المهلكات النظر في عشرة ، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهى: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشرة الطعام، وشرة الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد فى الدنيا والإخلاص فى الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع.

فهذه عشرون خصلة: عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كفى من المذمومات واحدة خط عليها فى جريدته، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم ألا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع. وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها، كالنوبة والندم مثلاً، خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المرید المشمر.

فأما أكثر الناس من المعدودين فى الصالحين، فينبغي أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والمراد، والثناء على النفس، والإفراط فى موالة الأولياء، ومعاداة الأعداء، والمداهنة فى ترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من جوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي فى جوارحه، ومالم تطهر الجوارح من الآثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو فى غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ. ومن فعل ذلك، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون. وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغابروا كما يتغابرون النساء وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات فى سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها.

ومن أحسن من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه. وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لاندراست العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عنى، ولو مت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبى، فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

قيل: كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقعد إلى القبور، فقيل له ذلك، فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى، وإن غبت لم يغتابونى.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل على فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائى بنى أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلاث، واستحکم فيهم البلاء، وأصاب الهوام مقيلاً فى أبدانهم، ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله تعالى.

وتستحب زيارة القبور، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة" ومن زار قبراً فليستقبل وجه الميت، وليقرأ شيئاً من القرآن ويهديه له، ولتكن الزيارة يوم الجمعة.

وقد روى أنه لما مات عاصم الجحدري رآه رجل من أهله فى المنام بعد موته بسنتين فقال له: ألسنت قد مت؟ قال: بلى. قال: وأين أنت؟ قال عاصم: أنا والله فى روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابى، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزني نتلقى أخباركم، قال: قلت له: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيئات بليت الأجسام، وإنما تتلقى الأرواح. قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله، ويوم السبت إلى طلوع الشمس. قلت: وكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لشرف يوم الجمعة وعظمه.

وحكى عثمان بن سواد الطفاوى وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة، قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء وقالت: يا ذخرى ويا ذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد مماتى، لا تخذلني عند الموت، ولا توحشني فى قبرى. قال: فماتت، فكنت آتيها كل جمعة وأدعو لها، وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ليلة فى منامى فقلت لها: يا أماه؟ كيف أنت؟ قالت: يا بنى؟ إن الموت لكرب شديد، وأنا بحمد الله فى برزخ محمود، يفترش فيه الريحان، ويتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور. فقلت: ألك حاجة؟ قالت: نعم، لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا فإنني لأسر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، فيقال لى: يا راهبة؟ هذا ابنك قد أقبل، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات.

وعن أنس بن منصور قال: كان رجل يختلف إلى الجنائز فيشهد الصلاة عليها، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال: أنس الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن سيئاتكم، وقبل حسناتكم، ولا يزيد علي هؤلاء الكلمات، قال ذلك الرجل: فأمسيت ذات ليلة، ولم أت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، فبينما أنا نائم إذا أنا بخلق كثير قد جاؤوني فقلت: من أنتم؟ وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، إنك كنت عودتنا منك هدية. فقلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعوا بها. قلت: فإني أعود لذلك، فما تركتها بعد.

وقال بشار بن غالب: رأيت رابعة فى منامى، وكنت كثير الدعاء لها، فقالت لى: يا بشار؟ هداياك تأتينا على أطباق من نور، مخمرة بمانديل الحرير. قلت: وكيف ذلك؟ قالت: هكذا

دعاء الأحياء إذا دعوا للموتى واستجيب لهم، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور، وخرم بمناديل الحرير، ثم أتى به إلى الذي دعي له من الموتى، ف قيل له، هذه هدية فلان إليك.

▲ 29. فصل [في حقيقة الموت]

والذي تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت، هو مفارقة الروح للجسد، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية، إما معذبة أو منعمة، فإن الروح قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والغم، وتتعمق بأنواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها، يبقى معها بعد مفارقة الجسد، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد. ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث، والله سبحانه أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده.

فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم. فإن كان له بالدنيا شيء يفرح به، ويستريح إليه، عظمت حسرته عليه بعد الموت، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله تعالى والأنس به، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه، وقطعت عنه العوائق والشواغل، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى.

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً في حال الحياة، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سر قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فلما انقطعت انكشفت له جميع أعماله، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وكل ذلك ينكشف له عند الموت، وهذه الآم تهجم على العاصي قبل الدفن، نسأل الله العافية.

ومما يدل على أن الروح لاتنعدم بالموت، قول تعالى: [﴿ولا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً بل أحياء عن ربهم يرزقون﴾](#) [آل عمران : 169]. قال مسروق: سألتنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن هذه الآية فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأتي إلى تلك القناديل، وذكر تمام الحديث . وجاء في قوله تعالى: [﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾](#) [غافر:46]. أخبر أنهم يعذبون بعد الموت.

وفى " الصحيحين " عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة".

وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشفت له سيئاته تحسر لها وتألم تألماً عظيماً، فأما المؤمن ، فقال عبد الله بن عمر: مثل المؤمن حيث تخرج نفسه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه، فهو يتفسح في الأرض، ويتقلب فيها. وهو صحيح ، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن، فيكون محبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف، فيه أنواع الأشجار، فلا يسره الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره العود إلي بطن أمه.

وقال مجاهد: إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعد لتقر بذلك عينه.

روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار" (17).

وروى أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم ! ما غرك ؟! ألم تعلم أنى بيت الظلمة، وبيت الوحدة، وبيت الدود؟" (18).

وروى الترمذي عن أبي سعيد قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصلاه، فرأى ناساً كأنهم يكثرون ، فقال: " أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى، فأكثرُوا ذكر هادم اللذات الموت، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا يتكلم فيقول: أنا بيت الغربية، أنا بيت الوحدة، أنا بيت التراب، أنا بيت الدود. فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً، أما إن كنت لأحب من يمشى على ظهري إلي ، فإذا وليتكَ اليوم وصرت إلي، فسترى صنيعي بك ، فيتسع له مد البصر، ويفتح له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحباً ولا أهلاً، أما إن كن لأبعض من يمشى على ظهري إلي ، فإذا وليتكَ اليوم، وصرت إلي، فسترى صنيعي بك، قال : فپلئتُم عليه حتى تختلف أضلاعه"، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأصابعه، فأدخل بعضها في بعض قال: " ويقبض له سبعون تيناً، لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبت شيئاً ما بقيت الدنيا، فينهشنه ويخدشنه، حتى يفضي به إلى الحساب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار" (19)

وقال كعب: إذا وضع الرجل الصالح في قبره، احتوشته أعماله الصالحة، الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والصدقة. وقال وتجيئ ملائكة العذاب من قبل رجله فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال بى القيام لله عز وجل، قال: فيأتونه من قبل رأسه، فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال بى الصيام، قال: فيأتونه من قبل جسده، فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه، فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه، وحج وجاهد لله عز وجل، لا سبيل لكم عليه، فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة، كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت في يد الله ابتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه، قال: فيقال له: هنيئاً طبت حياً، وطبت ميتاً، قال: وتأتيه ملائكة الرحمة، فتفرشه فراشاً في الجنة ودياراً من الجنة، فيفسح له في قوة مد بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة، يستضيئ بنوره إلى يوم يعثه الله من قبره.

وعن أنس بن مالك أن نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقولان: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله عز وجل به مقعداً في الجنة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فيراهما جميعاً وأما الفاجر أو المنافق فقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين " أخرجاه في "الصحيح". وفيهما من حديث أسماء بنت أبى بكر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل -أو قال قريباً من- فتنة المسيح الدجال، يقال : ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . . . " وذكر باقي الحديث.

وعن ابن عباس قال : لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها، التفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : " ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة في قبره، ولو كان منفلتاً منها أحد لانفلت سعد بن معاذ" وذكر باقي الحديث.

وعن عبد الله الصنعاني قال: رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته بأربع ليال، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: تقبل منى الحسنات، وتجاوز عن السيئات. قلت: وما كان بعد ذلك؟ قال : وهل يكون من الكريم إلا الكرم، غفر لي ذنوبي وأدخلني الجنة، قلت: بم نلت الذي نلت؟ قال: بمجالس الذكر، وقولي الحق، وصدقي في الحديث، وطول قيامي في الصلاة، وصبري على الفقر، قلت: منكر ونكير حق؟ قال: أي والله الذي لا إله إلا هو، لقد أقعداني وسألاني: من ربك؟ وما دينك، ومن نبيك؟ فجعلت أنفض لحيتي البيضاء من التراب، وقلت: مثلي يسأل؟! أنا يزيد بن هارون الواسطي، كنت في دار الدنيا ستين سنة أعلم الناس، فقال أحدهما: صدق هو يزيد بن هارون، نم نومة العروس، فلا روعة عليك بعد اليوم.

وقال المروزي: رأيت أحمد بن حنبل في النوم في روضة، وعليه حلتان خضروان، وعلى رأسه تاج من النور، وإذا هو يمشى مشية لم أكن أعرفها له، فقلت يا أحمد: ما هذه المشية التي لم أكن أعهد لها لك؟ فقال: هذه مشية الخدام في دار السلام. فقلت: وما هذا التاج الذي أراه على رأسك؟ فقال: إن ربي عز وجل أوقفني وحاسبني حساباً يسيراً، وكساني وحباني وقربني، وأنا أنظر إليه، وتوجني بهذا التاج وقال لي: يا أحمد هذا تاج الوقار توجتك به، كما قلت: القرآن كلامي غير مخلوق.

31- فصل في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار

قد أشرنا إلى أهوال القبر، وأشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب الميزان والصراف، وهذه أهوال يجب الإيمان بها، وينبغي تطويل الفكر فيها، وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات، ثم قيل له: إن صانعاً يصنع من هذه النطفة القذرة مثل هذا الأدمي المتصور العاقل المتكلم، لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك، فخلفه على ما قيل من العجائب، يزيد على بعثه وإعادته. وكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد البداية؟ فإن كان في إيمانك ضعف، فقوة الإيمان بالنظر إلى النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوى الإيمان بها، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكير والاعتبار، وليحثك ذلك على الجد والتشمير، وأول ما يقرع أسماع الموتى صوت إسرافيل حين ينفخ ذلك في الصور، فصور نفسك وقد ذاهلاً مبهوتاً شاخساً نحو النداء. قال الله تعالى : [{ونفخ في الصور فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون}](#) [يس: 51].

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "كيف أنعم وصاحب الصور قد حنى جبهته، وأصغى بسمعته، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ في الصور فينفخ؟" قال المسلمون: كيف نقول يا رسول الله؟ قال : قولوا "حسبنا الله ونعم الوكيل، وتوكلنا على الله" ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيامة، فيساقون بعد البعث حفاة عراة إلى أرض المحشر، وهي قاع ليس فيها ربوة يختفي الإنسان بفنائها.

وفى "الصحيحين" قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم "يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي".

ثم تفكر في ازدحام الناس، وقرب الشمس من رؤوسهم، وشدة العرق، مع ما في القلوب من القلق.

وفى الحديث: "إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم".

وتفكر يا مسكين في سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله".

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تزول قدما عبد حتى يسأل: عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه".

وعن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر رضي الله عنه، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إن الله عز وجل يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإنني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، قال: ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهداء: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} [هود: 18] أخرجاه في "الصحيحين".

وفى "الصحيحين" من حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز".

وفيها أيضاً، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم، قالوا: يا رسول الله ما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليها خطاطيف وكلايب وحسك، يمر المؤمنون عليه كالطرف، وكالبرق الخاطف، وكالريح، وكأجويد الخيل والركاب، فجاج مسلم، وناج مخدوش، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً".

▲ 32- ذكر جهنم أعادنا الله منها (20)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً، فسمعنا وجبة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أندرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن انتهى إلى قعرها" رواه مسلم.

وفى "الصحيحين" عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرها".

وفى أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها".

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب، فيستغيثون بالشراب، فيغاثون بالحميم، ينالونه بكلايب من حديد، فإذا دنا منهم شوى وجوههم، وإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم، فيطلبون إلى خزنة جهنم، أن {ادعوا}

ريكم بخفف عنا يوماً من العذاب { فيجيئونهم } { أو لم تك تأتكم رسلكم بالنبات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال } [غافر: 49] فيقولون سلوا مالكا: فيقولون { يا مالك ليقتض علينا ربك } فيقول: { إنكم ماكثون } [الزخرف: 77] فيقولون: { ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون } فيقول عز وجل { اخسؤوا فيها ولا تكلمون } [المؤمنون: 107-108] فعند ذلك يبأسون من كل خير، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور.

وتفكر في حياتها وعقاربها، ففي الحديث: "إن حياتها أمثال أعناق البخت، وعقاربها كالبغال الموكفة".

وعن الحسن: أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا.

واعلم: أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن يكفى في التخويف، فإن كنت مؤمناً بهذا فانتبه لنفسك، وخف ما بين يديك، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين، ولسنا نعى بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصي، ويحث على الطاعة، فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال، وأن يقولوا: استعنا بالله، نعوذ بالله، يا رب سلم، وهم مع ذلك مصرون على القبائح، والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضار وهو إلى جانب حصن فيقول: أعوذ بالله من هذا، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه.

▲ 33- [فصل في محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم]

وكن في الدنيا محباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حريصاً على تعظيم سنته، لعله يشفع فيك في الآخرة، فإن له شفاعته يتقدم فيها على الأنبياء كلهم، ويسأل الله في أهل الكبائر من أمته فينجيهم، واستكثر من الإخوان الصالحين، فلكل مؤمن شفاعته، ولا تحملنك العزة على التواني وتسمى ذلك رجاءً، فإن من رجا شيئاً طلبه، واحترز من المظالم، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها، فإن غرماءه يحيطون به يوم القيامة فهذا يقول ظلمي: وهذا يقول: استهزأ بي، وهذا يقول: أساء جوارى، وهذا يقول غشنى، فلا خلاص لك من أيديهم، فإذا توهمت الخلاص قيل: لا ظلم اليوم.

وعن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيسحبون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة".

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار".

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال "لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء".

وهذه الأحاديث كلها في الصحاح، فانظر وفقك الله إلى بعد سلامة حسناتك لدخول ما يبطلها عن الرياء والغيبة، فإن سلمت أخذها الخصوم، فتيقظ لنفسك، ولا تفرط في أوقاتك، فإن المسكين من أثر لذة متقطعة، واشترى بها عذاباً شديداً دائماً نسأل الله السلامة والتوفيق.

▲ 34- ذكر صفة الجنة نسأل الله العظيم من فضله

عن أبي هريرة رضى الله عنه قلنا : يا رسول الله! حدثنا عن الجنة، وما بناؤها؟ قال : "لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه".

وفى حديث أسامة بن زيد، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يوماً وذكر الجنة : "ألا مشمر لها؟ هي ورب الكعبة ريحانة تهتز، ونور يتلألأ، ونهر مطرد، وزوجة لا تموت، في حبور ونعيم، ومقام في أبد" فقالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال : "قولوا: إن شاء الله" (21)

وفى "الصحيحين" من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : "إن الله عز وجل قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

وفيها أيضاً من حديثه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : "أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، وربحهم المسك، ومجامرهم الألوّة الألنوج (22) أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء". وفى رواية أخرى : لكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقيهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً".

وعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن". أخرجاه في "الصحيحين".

وفيها من حديث أبي موسى أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : "إن في الجنة لخيمة من درة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخريين، يطوف عليهم المؤمن".

واعلم: أن الله تعالى ذكر نعيم الجنة مبسوطاً في مواضع القرآن، ثم جمعه في آيات. منها قوله تعالى : { وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين } [الزخرف: 71].

وقوله : { لا يبعون عنها حولا } [الكهف: 108] ثم زاد على ذلك بقوله : { فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين } [السجدة: 17].

وصفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على هذا.

وأفضل ما ينال في الجنة رؤية الله تعالى . وفى "الصحيحين" من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه قيل: يا رسول الله! هل نرى ربنا؟ فقال: "فهل تضامون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحب؟ قالوا: لا ، قال: "فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك"

▲ 35- باب في ذكر سعة رحمة الله تعالى

نختم الكتاب بذكر سعة رحمة الله عز وجل، نرجو بذلك فضله، إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه، قال الله تعالى : { قل يا عبادي الذين أسرفوا

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لما قضى الله عز وجل الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي" أخرجه في "الصحيحين".

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن لله عز وجل مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام والبهائم، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على أولادها، وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة".

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن ربكم تبارك وتعالى رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة أو يمحوها الله، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك".

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " يقول الله عز وجل: من عمل حسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن عمل سيئة، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر، ومن اقترب إلى شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلى ذراعاً اقتربت منه باعاً، ومن أتاني يمشى أتيته هرولة".

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: أي رب ! أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال تبارك وتعالى: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فقد غفرت لعبيدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر فقال: أي رب ! عملت ذنباً فاغفره لي، فقال: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى، فليعمل ما شاء الله". هذه الأحاديث كلها صحاح.

وفى "الصحيحين" من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبي، وإذا امرأة من السبي تسعى، إذا وجدت صبياً في السبي فأخذته، فألصقته ببطنها، فأرضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟" قلنا: لا والله. قال: "لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها".

وفى "الصحيحين" من حديث أبي ذر رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " ما من عبد قال: لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة". قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: " وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق ! وإن زنى وإن سرق" ثم قال الرابعة: "على رغم أنف أبي ذر".

وفيها من حديث عتبان بن مالك رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " إن الله حرم النار على من قال: لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجه الله

وفيها من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن قال: " يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير وزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة" وعن أبي موسى رضى

الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أتى بيهودي أو نصراني حتى يدفع إليه فيقال له: هذا مكانك من النار".

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يارب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل فيقول: لا يا رب فيقول: بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول أحضروه، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة. قال : فطاشت السجلات ونقلت البطاقة، ولا يثقل شيء مع اسم الله عز وجل".

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال: أرايتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دانقاً (23) ، أكان يردهم؟ فقيل: لا فقال: والله المغفرة عند الله عز وجل أهون من إجابة رجل لهم بدانق !

وعن إبراهيم بن أدهم قال: خلا لي الطواف في ليلة مظلمة شديدة المطر، فلم أزل أطوف إلى السحر، ثم رفعت يدي إلى السماء. فقلت: اللهم إنى أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره. فإذا قائل يقول في الهواء: أنت تسألني العصمة، وكل خلقي يسألني العصمة، فإذا عصمتك فعلى من أتفضل؟

فهذه الأحاديث مع ما ذكرناه في كتاب الرجاء، تبشّرنا بكرم الله تعالى وسعة رحمته وجوده. ونحن نرجو من الله سبحانه أن لا يعاملنا بما نستحقه، وأن يتفضل علينا بما هو أهله. ونحن نستغفر الله عز وجل من أقوالنا التي تخالف أعمالنا ومن كل تصنع تزينا به للناس، وكل علم وعمل قصدناه ، ثم خالطه ما يكدره، فبكرمه نستشفع إلى كرمه، وجوده نسأل من جوده، إنه قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكريم وجهه عز وجل.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.